الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر ونصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
بشارع الساحة رقم ٣٩
بالقاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٩٢

بدل الاشتراك
صـ
٣٠ عن سنة كاملة
٢٠ عن ستة شهور
٦٠ عن سنة في الخارج
١ ثمن العدد الواحد

الاعلانات
يتفق عليها مع الادارة

العدد السادس — القاهرة في يوم السبت ٦ ذي الحجة سنة ١٣٥١ — أول ابريل سنة ١٩٣٣ — السنة الأولى

فهرس العـــدد

ص	
٣	في الربيع أحمد حسن الزيات
٥	الخجول : لسليمان محمود جاد — الزهرة : م . يونس
٦	من رسالة الى صديق ا . الزيات . السائل : م . يونس
٧	التجديد في الأدب : للأستاذ أحمد أمين
٩	الثور في مستودع الخزف : للدكتور محمد عوض محمد
١١	حول فلسفة برجسون : للسيد أحمد فهمي
١٢	خواطر : لابراهيم عبده
١٣	باقة من حديقة أبيقور : لأناتول فرانس
١٥	القصة المصرية : للأستاذ جيب
١٨	ابن خلدون في مصر : للأستاذ محمد عبد الله عنان
٢٠	أثر اللغة العربية في العالم الاسلامي : للسير دنسون روس
٢٢	عتاب : للأستاذ محمود الخفيف
٢٣	الفلاح : لأحمد الصافي النجفي
٢٣	وداع : لمحمد برهام — ٢٣ بعد الحب : أمين المجين
٢٤	نظرات في الأدب الفارسي للدكتور عبد الوهاب عزام
٢٦	الأدب الياباني للأستاذ أحمد الشنتناوي
٢٧	قصة فيلسوف عاشق للدكتور طه حسين
٣١	فولتير المؤرخ للأستاذ زكي نجيب محمود
٣٤	مركز الكون للاستاذ عبد الحميد سماحه
٣٥	الشاي ...
٣٨	يوم عصيب في جبل المقطم للأستاذ الدمرداش محمد
٣٩	المبارزة : لاسكندر بوشكين

طبعت بمطبعة فاروق ٢٨ شارع المدابغ بالقاهرة

في الربيـــع ...

منذ أيام تيقظت الطبيعة من رقادها الطويل ، وأخذت تفتح جفنها الوسنان بانداء الربيع ، وتبحث عن حُللها وحُلاها في خزائن الأرض ، وتأهب كل حي ليحتفل بشبابها العائد وجمالها المبعوث . فالحياة الهامدة تنتعش في الغصون الذابلة ، والطيور النازحة تعود إلى الأعشاش المقفرة ، والأفنان السليبة تفطر بالأوراق الغضة ، وبارض النبت يحوك على أديم الثرى أفواف الوشي ، والنسيم الفاتر يروض أجنحته ليحمل إلى الناس رسالة الزهور ، وسر الحياة يتعلن في الحي فينشي ويمرح ، وطيوف الهوى تمس القلوب فتهفو وتختلج ، والعالم كله يسبح في فيض سماوي من الجمال والنشوة والغبطة ؛

اللهم إلا الانسان !!

فقد حاول بادعائه وكبريائه أن يكون عالماً بذاته ، فكان نشوزاً في نغم الكون ، ونفوراً في نظام العالم ، فلو أنه اقتصد في تصنعه وائتلف كما كان بالطبيعة ، لاتحد الآن مع الربيع فشعر بتدفق الحياة في جسمه ، وإشراق الصفاء في نفسه ، وانبثاق الحب في قلبه ، وأحس أنه هو في وقت واحد زهرة تفوح ، وخضرة تروق ، وطائر يشدو ، وطلاقة تفيض على ما حولها البشر والبهجة !

لا يكاد يقبل على أوربا الربيع حتى تختلط أناشيد الشعراء وأغاريد البلابل في تمجيده وإعلانه ، لأنه يفد اليهم ويرد عليهم النور والدفء والزهر والجمال والحركة .

أما نحن فلا نكاد نفطن لحلوله ولا لرحيله ، لأن العام كله على ضفاف الوادي يوم من أيام الربيع : فجره الندي يناير ، وضحاه الزاهر ابريل ، وظهره الساطع يوليو ، وأصيله الرخي أكتوبر !

فليس للربيع المصري على سائر الفصول فضل إلا بذلك السر الالهي الذي تنشق عنه الأرض ، فيسري في العود ، ويشيع في الجو ، ويدب في الأجسام ، وينشأ عنه هذا البعث الصغير !

ففي الربيع يشتد الشعور بالجمال وبالحاجة إلى التجمل ، فترى الشباب بجنسيه يستعير ألوان الرياض ، وعبير الخمائل ، ومرح الطيور ، ويحتشد في دور الملاهي ، وصدور الشوارع ، فيخلع على الوجود نضارة الحسن ، وعلى الحياة رونق السعادة !

وأجمل شيء في ربيع القاهرة أصائله وأماسيه !

في هذين الوقتين تزدهر شوارع القاهرة الحديثة بزهرات شتى الألوان من بنات الانسان ، فتملأ الجو عطراً ، والعيون سحراً ، والقلوب فتنة !

وهنالك على أفاريز الطرق ، ومشارف المقاهي ، تقف أبصار الكهول والشيوخ حائرة مبهورة تلسع بالنظر الرغيب هذا الحسن المصون ! وبين النظرة والنظرة عبرة جافة تصعّد أسى على شباب ذاهب لا يرجع ، وجمال رائع لا ينال !

***

وفي الربيع تضطرم العواطف والعزائم في الشباب . فيفحون بالأمل والطموح والحب تفتحان الورود النواضر بعرف الطيب ! فقصائدهم الغزلية تنثال كل يوم على بريد (الرسالة) فيحول بينها وبين استيعاب (نشرها) العطر صفحاتها المعدودة .

وكتبهم القيمة تظهر فياضة بالأفكار الوثابة ، والعواطف المشبوبة : كالفكر والعالم ، والشمية ؛ وعلى طريق الهند ، والحياة الثانية ، والربيع ، والضحايا ، وغير ذلك مما نقرأه الآن لنعود إلى نقده وتحليله بعد .

ومشروعاتهم الاقتصادية والثقافية تظهر موسومة بطابع الاقدام والاخلاص والوطنية : كمشروع تعاون الشباب لمزاولة الأعمال الحرة ، ومشروع القرى لتثقيف العامة .

***

وفي الربيع تحتدم الطباع في الأدباء الكهول ، فيثب بعضهم على بعض بالهجو المقذع والنقد اللاذع ، ويتناقرون تناقر النسور على الصخور ، والطيور الوديعة جاثمة في ظلال الغصون ترقب المعركة على بعد . فكلما رأوا الريش المنتوف والدم المنزوف ، كبروا واستبشروا ، ودعوا الله في أغرودة شامتة أن يتفانى الفريقان ، ليخلو الجو من البزاة والعقبان !

وأدباؤنا الكهول شديدٌ بعضهم على بعض !

فهم يسخون بالنقد الممض ، ويضنون بالتقريظ العادل ، كأنما العصر لا يحتمل غير كاتب من الكتاب ، والمكاتب لا تتسع لغير كتاب من الكتب !

ويعجبني الأستاذ صاحب رواية (الهادي) : عرف أن الأدباء ربما خرجوا عن نقدها وتقريظها بالصمت كالعادة ، فكتب هو في مدحها فصلا في البلاغ .

والانسان أولى الناس بخيره ، وأعرف بقيمة عمله من غيره .

***

وفي الربيع تتقد حمية العروبة في العرب . فتسمع اليوم في فلسطين والشام أبناء الشعب الخالد ، وورثات المجد التالد ، يصرخون صراخ الأسد في راقد العدل أن يستيقظ ، وفي غائب الحق أن يثوب !

وترى في العراق حطام السياسة البالية تكسحه الريح كسحها للهشيم ، ثم تقوم على هذا الطلل المنسوف حكومة فيها حيوية الربيع ، ولكن ليس فيها شبابه !

والشباب في العراق كالشباب في مصر منذ سنين : يحاول القائمون على أمره أن يربوه تربية الدجاج : ينقنق دائراً بين الحب والماء ، ويبحث في الأرض ليذهل عن السماء ، ويأبى الشباب إلا أن يكون طيراً يحتقر القفص ، ويقتحم الجو ، ويسمو إلى الغاية ! والغد على كل حال يومه !

أحمد حسن الزيات

الخجــــول

خجول بطبعه ، ضعيف الثقة بنفسه ، إن تحـــدث ظن حديثه مملولا فيقتضبه ، أو معروفاً فتحمر بالخجل وجنتاه ، ويبتل بالعرق جبينه .. ويحاول التخلص من موضوعه فلا يعرف ، فيتلعثم لسانه ، ويموت على شفتيه كلامه .

إذا أراد شراء حاجة ، كان كمن يحاول فعل شيء محرّم ، فهو يخرج من شارع الى شارع ، ويمر من أمام حانوت إلى أمام حانوت ، دون أن يجرؤ على دخول واحد منها !! ولا يزال كذلك حتى تكل رجلاه ، فينكفئ راجعاً إلى بيته : فاذا كانت الحاجة شديدة ، نسي خجله لحين ، ثم استجمع ما استطاع من الشجاعة ، ودخل رابع حانوت يقابله ، فيطلب ما يشاء في صوت المسترحم ، فاذا ما أحضر اليه ، لم يفكر في جودة الصنف ولا في غلاء الثمن .. بل يؤدي الثمن فوراً .. ويغادر المحل منتصرا . . !!

إذا قابل صديقاً انضمت يداه إلى ورائه وأخذتا تتحاككان! فاذا كانت إحداهما مشغولة ، ارتفعت الثانية إلى ذقنه .. أو إلى طربوشه .. أو إلى أذنه . . .

والسلام ! أمرٌ ما أشقه ! فهو يبدأه والصديق على مسافة طويلة ، ثم يحيي بصوت خافت لا يكاد هو يسمعه

هذا إذا كان الصديق بإزائه ، ولا مفر له من لقائه ، أما إذا استطاع أن يهرب فهو يوفر على نفسه كل هذا العناء في خفة يحسده عليها اللص !

إذا دعوته إليك ، اعتذر وبالغ في الاعتذار ، فأذا ألححت في الدعوة ، دفعه خجله إلى الأجابة ، وكم تكون تضحيته عظيمة في هذه الحالة ! فهو يتحمل ساعة ما أشقها على نفسه ! كلها عمل وإجهاد فكر .. لا يكاد يدخل الحجرة حتى يصطدم بأول كرسي يقابله ، فاذا ما حاول إعادته إلى وضعه الأول اصطدمت يده بالمنضدة . . . .

إذا قدمت اليه القهوة اعتذر عن شربها .. ولكنه يتناول الفنجال عند ما يقدمه اليه صديق ، ولا يكاد يمسكه حتى تقوم في الفنجال عاصفة تدفع بالقهوة يمينا وشمالا ، ولا مفر لها من هذا الاضطراب ، ما دام هو بعينه حامل يده . . !!

إذا طلب اليه صديق أن يقرضه مبلغا من المال ، امتدت يده إلى جيبه فأخرج المطلوب دون وعي ولا تفكير !!

وقد يحتاج هذا المال بعد أيام ، وتضطره الحاجة إلى الذهاب الى صديقه . فاذا ما بلغ البيت نسي سبب المجيء ، وكاد يعود أدراجه . . . ولكن الحاجة تلح عليه .. تدفعه إلى داخل المنزل .. فاذا ما قابل الصديق نسي كل شيء ..!!

وهو شاب مثقف ، له غرام بالأدب الحديث ، وله آراء سديدة فيه ، ولكنه عند ما يعارَض ، ينسى آراءه ويعتقد أنها خاطئة ، وإن كان لا يعرف وجه الخطأ فيها . . . !!

قدّر لي أن أسمع حديث حبه وغرامه .. وقد كان هذا منه غريبا ، ولكن أغرب منه غرامه ، فقد رأى حبيبته مارة أمام بيته في خفة الغزال ، وجمال الزهرة ، فأعجب بها ، ووقع في شراك حبها . . . وكان يظفر منها كل يوم بنظرة في هذا المكان وفي هذا الوقت .. أما اسمها ومنزلها وأسرتها فذلك ابعد شيء يفكر فيه . . .

أليس الخجل كالتردد ، مرضا من الأمراض يصيب المرء في حياته العملية فيغل يده ويشل عقله ، ويجعل الحياة في نظره عبئا لا يحتمل ، ولغزا لا يحل ؟

سليمان محمود جاد

الزهــــرة

الزهرة ابنة الصباح ، وجمال الربيع ، ومنبع العطر ، وظرف العذارى ، وغرام الشعراء !

هي كالانسان ، قليلة البقاء ، سريعة الفناء .. ولكنها تُساقط أوراقها على الأرض في أناقة ولين !

كان القدماء يُحمّلون بها كؤوس موائدهم ، ويتوجون بها رءوس حكامهم ، ويجللون بها أجساد شهدائهم . أما اليوم ، فتذكارا لهذه الأيام الغابرة نضعها نحن في معابدنا ، وتعبر بألوانها عن مشاعرنا : فالأمل باخضرارها ، والطهر ببياضها ، واشتعال الحب باحمرارها ، والغيرة باصفرارها . فهي كتاب رشيق أنيق ، يجمع بين دفتيه تاريخ الحب وثورات القلوب ، ولكن لا أثر فيه للفتن والحروب !

محمد توفيق يونس

١٤ ١

من رسالة الى صديق

حول التجـــديد

... الجديد جديد في مظهره ، قديم في جوهره ، لا يصلح موضعاً لدرس ولا موضوعاً لحديث .

ستقول : اذن ما بال هذه القصائد الرائعة التي يجلوها الشعراء والمقالات الرائقة التي يدبجها الكتاب ؟ فأقول لك انك اذن تفهم من كلمتي القديم والجديد غير ما أفهم ، وتريد من مدلولها غير الذي أريد . كأنك تريد بهما ما كان يريده الأقدمون حين كانوا يتبارون في شعر امرىء القيس وجرير وأبي نواس وأبي تمام والبحترى والمتنبي وابن هانىء . والأقدمون كما تعلم إنما كانوا يختلفون في شكل الشعر لا في موضوعه ، فهم يتكلمون في اللفظ الجزل والركيك ، والأسلوب الرصين والمهلهل ، والمعنى المسروق والمطروق ، والتشبيه المنتزع من وجوه البادية أو من صور الحضر ، والمطلع الجيد والردىء ، والتخلص الحسن والقبيح ، ويجرون في كل ذلك على أذواق تختلف باختلاف الطبقات والبيئات والصناعات والأجناس . وعذرهم في ذلك واضح . فالشعراء لأسباب فطرية واجتماعية ، لم يقدموا اليهم الا نوعاً واحداً من الشعر هو ما يتعلق بالوجدان والعاطفة . فكان النقاد أمام وحدة الشعر العربي ونقصه ، مسوقين الى أن يقصروا جهودهم على لفظه : يحكون معدنه ، ويسجمون عوده ، ويسبرون غوره بالموازنة والمقارنة والتعقب . والشكل الخارجي حكمه حكم اللباس والأثاث والآنية : يتغير بتغير الزمان والمكان والحالة ، ليس لأحد في ذلك حيلة .

فهل ترى أن أبا نواس مجدد بالاضافة الى امرىء القيس ؛ لانه بدأ قصيده بوصف الخمر ، وتكلم في الغلمان والطرد ؟ أو أن المتنبي مجدد بالاضافة الى أبي نواس ، لأنه داف شيئاً من فلسفة اليونان في شعره ؟ أو أن مطرانا مجدد بالاضافة الى المتنبي ، لأنه ذكر القطار والكهرباء ، ولون أدبه بأدب الغرب ؟ اني لا أرى في مثل هذا التفاوت الظاهري تجديداً ، ما دام الشعر قد ظل في كل هذه العصور واحداً في موضوعه وطريقه ونوعه ووزنه .. أما تغير الشكل فذلك فعل القانون العام الذي يغير أبداً كل شيء .

وهل قصد أحد من هؤلاء وأولئك الى هذا التجديد المزعوم فجاهد في سبيله أهل جيله ، كما فعل أرباب المذهب الاتباعي (Classique) والابتـــداعي (Romantique) والواقعي (Realisme) في فرنسا مثلا ؟ ؟ لم يكن شيء من ذلك ، لأنهم لم يختلفوا كما اختلف الفرنج في الموضوع والنبوع حتى تباين الأغراض من تلك المواضيع ، وتتشعب المسالك الى هذه الينابيع .

وهل سمعت أن الناس اختلفوا يوم تركوا الطاسة الى الكوز والكوب والقدح والجام ؟ أم علمت أنهم اختصموا كلما تغيرت موادها من الجلد الى الخشب ، ثم الى الخزف ، ثم الى الزجاج ، ثم الى المعدن ؟ كلا ! لم يسمع أحد بذلك ، لأن اللبن والماء وهما القصد والغاية لم يتغيرا منذ خلقهما الله . أما حين تغير الشراب من اللبن الى الخمر فقد حدث الخلاف وتشعب الرأي وتعددت المذاهب .

الحق أن التجديد لا يحدث ، والجديد لا يكون ، الا متى وجد القصص والتمثيل في الشعر فيكمل ، ودخلت الأقصوصة والقصة والرواية في الترفيه . أما ادعاء التجديد بالدعوة الى العامية وترجمة الأساليب الغريبة فعجز يتظاهر بالقدرة ، وجهل يتستر بالتحذلق !

ا . الزيات

السائل

بينما كنت أسير في إحدى الطرق ، وقفني سائل مسكين بوجه شاحب ، وعينين داميتين ، وشفتين متقلصتين ، وقدمين مرتجفتين . فقلت في نفسي :

أوه ! ما أتعس هذا الشقي !

قدّم إليّ يده الحمراء النحيلة القذرة ، وطلب مني صدقة بصوت يخنقه بالبكاء .

فوضعت يدي دون أن أفكر ، وقد أخذتني الشفقة على هذا البائس ، وضعتها في جيوبي ، ثم جعلت أبحث فيها عن شيء أعطيه إياه ، ولكني وا أسفاه لم أجد شيئاً ، لا نقوداً ولا ساعة ، حتى ولا منديلا !

صار موقفي حرجا ، وما زال السائل مادّاً إليّ يده واثقاً كل الثقة من العطية !

لم أعرف ماذا أعمل ! . وفي النهاية أخرجت يدي وأنا حيران خجل ، ثم مددتها وصافحت يده الممدودة قائلا :

« أنا آسف يا أخي فليس معي شيء » .

ولم أكد أتم هذه الجملة حتى رأيت عيني السائل وشفتيه تفترّان عن ابتسامة رقيقة ، وإذا به يضغط على يدي شاكراً ممتنا وهو يقول :

« حسناً يا أخي ! شكراً لك ! ان هذه أيضاً صدقة ! »

م . يونس

التجديد فى الأدب

للأستاذ أحمد أمين

١

موضوع ثار فيه الجدل بين الكتّاب، واحتدم فيه الخلاف بين الباحثين. هل أدبنا العربى يحتاج الى تجديد؟ وهل سواء فى ذلك شعره ونثره؟ وتعصب قوم للقديم يذودون عنه ويحافظون عليه، ولا يسمحون بأى تغيير فيه. وهب المحدثون ينعون على المحافظين جمودهم، وينذرونهم بسوء العاقبة إن هم ظلوا متمسكين بالقديم معرضين عن الجديد.

ولكن أسوأ ما يسوءنى فى هذا الموضوع وأمثاله الغموض والابهام؛ فاذا سألت المجددين ماذا يريدون بالتجديد وما ضروبه وما مناحيه وماذا يقترحون أن يدخلوه على الأدب العربى جمجموا فى القول وأتوا بكلمات غير محدودة المعنى، ولا واضحة الدلالة. وقد يجوز اذا حددوا أغراضهم وأبانوا عن مقاصدهم، أن يوافقهم المحافظون أو أكثرهم، ولا يكون ثمت خلاف، وان يكن فخلاف معروف تقام عليه حجج واضحة.

من أجل هذا كله أحاول أن أعرض لوجوه التجديد التى يخيل الى أنهم يريدونها، وأدلى برأيى فيها، وأدعو الكتاب أن يساهموا فيها بآرائهم، ويستدركوا ما يفوتنى من حججهم وأغراضهم.

فى أدب كل لغة عناصر ثابتة لا يعتريها تغير ولا ينالها تجدد، هى قدر مشترك من الأسلوب والتراكيب وتأليف الجمل؛ به تمتاز اللغة من سائر لغات العالم. وبنفرد أدب الأمة عن آداب العالم — وقدر مشترك من الفن، تقيس به الجيد من الأدب فى كل عصر وكل جيل، هو فوق البيئة وفوق العوامل السياسية والاجتماعية، وفوق ما يطرأ عليها من كل تغيير.

وهذا وذاك هما اللذان يجعلاننا نتذوق الأدب الجاهلى، وندرك ما فيه من جمال، ونشعر بما فيه من نقص. ويستطيع الأديب منا أن يعرف خير ما قال امرؤ القيس، وما قال طرفة، وما قال زهير؛ وهو الذى يجعلنا نتذوق ما فى القرآن الكريم من جمال فى الأسلوب والمعنى. وندرك ما فى العصر العباسى الى عصرنا هذا من نثر وشعر، ونزنه ونقومه، ونحكم على بعضه بالحسن والجمال والقوة، وعلى بعضه بالضعف والقبح والغموض. ولولا هذا القدر المشترك لانقطعت الصلة بيننا وبين القديم فلا نحس له جمالا، ولا نتذوق له طعما.

وهذا النوع من العناصر لا يقبل تجديداً ولا تغييرا، إذ بتغييره تضيع اللغة وتفقد مشخصاتها. فلو قلبنا تركيب الجمل رأساً على عقب، أو لم تراع الوضع الذى تسير على نهجه اللغة، لكان لنا من ذلك لغة جديدة، ليس بينها وبين الأولى نسب.

وهناك نوع آخر من العناصر فى اللغة والأدب، خاضع للتغيير، قابل للتشكل، يتأثر بالبيئة وبدرجة الحضارة، وبالأساليب السياسية، وبالحياة الاجتماعية، وغير ذلك.

وفى هذا النوع يكون التغيير والتجديد. ومن أجل هذا التغيير كانت الفروق واضحة بين الشعر العباسى والشعر الجاهلى، فى التعبير والتشبيه والأسلوب والموضوع ونحو ذلك. ومن أجل هذا أمكن الأديب اذا عرض عليه نوع من الأدب، أن يعرف عصره ولو لم يعرف قائله؛ لأنه يستطيع أن يتبين خصائص كل عصر ومميزاته، ويطبق ذلك على ما يعرض عليه من شعر أو نثر. ومن أجل هذا أيضاً ترى الفرق واضحاً بين لغة الأدباء الآن وبين لغتهم منذ عشرين عاما. وتجد الفروق واضحاً بين لغة الجرائد المصرية اليوم، وبين لغة الجرائد السورية والعراقية، وان كانت كلها تصدر باللغة العربية، وتشترك فى العناصر الأساسية.

وهذا التغير أو التجديد فى الأدب وتأثره بما حوله خضع له الأدب العربى وكل أدب على الرغم من المحافظين والجامدين؛ فقد رأينا فى العصر العباسى مدرسة وعلى رأسها الأصمعى لا تحب إلا الشعر الجاهلى، ولا تحب من المحدثين إلا من قلد القدماء. ورأينا من كان يُنشَدُ الشعر فيستحسنه، فاذا قيل له انه محدث استهجنه واتهم ذوقه؛ ولكن هذه المدرسة أخضعها الزمن لحكمه. ونشأ أدب عباسى جديد،

احتفظ بالعناصر الأساسية للأدب العربي ولم يأبه لما عداها وكان الفرق كبيراً بين الأدبين كما قال الجاحظ: كم من الفرق بين قول امرئ القيس:

تقول وقد مال الغبيط بنا معاً

وقول على بن الجهم:

فبتنا جميعاً لو تُراق زجاجة
من الماء فيما بيننا لم تسرّب

وجاء المتنبي وعلى أثره المعرى لجددا في الشعر من ناحية الأسلوب ومن ناحية المعاني، فأنكر عليهما أدباء عصرهما نزعتهما الجديدة، حتى رأينا من بين العلماء من أبوا أن يعدوهما في الشعراء. ثم حكم الزمن على هؤلاء العلماء. ووضع المتنبي والمعرى في مكانهما اللائق بهما.

وكان هذا هو الشأن في كل عصر، حتى عصرنا الحديث، نشأ قوم تأثروا بالأدب العربي القديم وحذوا حذوه، ولم يخرجوا قيد شعرة عنه. فلو ركبوا الطائرة قالوا ركبنا الهودج والبعير، واذا استهلكت البنزين قالوا رعت السّعدان(١)، وسموا الجنيهات الانجليزية وعملة الورق دراهم ودنانير، واذا لم يكن لهم من الأمر شيء قالوا لاناقة لنا ولاجمل، وهم في الحقيقة لاناقة لهم ولا جمل، الى كثير من أمثال ذلك.

وتأدب قوم بالأدب الغربي الى ثقافتهم العربية، فثاروا على كل ذلك واختلفوا بينهم في مقدار هذه الثورة. فقوم يريدون أن يتحرروا من الأوزان والتزام القوافي، وآخرون يريدون أن يتحرروا من التشبيهات البالية والمجاز العتيق، وآخرون يعافون بعض الأساليب القديمة، والموضوعات التي جرى عليها السابقون. وكان صراع بين الطائفتين نعرض له بعد.

على كل حال دلتنا أحداث الزمان على أن عوامل البيئة في التغيير والتجديد لايمكن أن تقاوم، كما دلتنا على أن ليس كل تجديد يصادفه التوفيق ويتسع له صدر الزمن، وأن نجاح من نجح من دعاة التجديد وفشل من فشل منهم إنما كان خاضعا لقوانين طبيعية ظاهرة حيناً وخافية أحياناً، وأن نوع التجديد إن كان صالحا وكان مما تسمح به القوانين الطبيعية للادب فمعارضة المعارضين لايكون لها من أثر إلا أن تؤخر زمن الاصلاح، وهو واقع لامحالة يوما ما، وإذا لم تسمح بها هذه القوانين كانت دعوة التجديد صيحة في فضاء، أو خطا في ماء.

وبعد فأى أنواع التجديد يتطلبه المجددون؟ وهل من خير الأدب العربي قبوله أو رفضه؟

ان أول أنواع التجديد وأبسطها تجديد الألفاظ، لأنها مادة الأديب الأولية، وخيوطه التي ينسج منها قطعته الفنية.

وتجديد الألفاظ على ضربين:

(١) اختيار الألفاظ التي تناسب العصر ويرضاها ذوق الجيل الحاضر. لأن لكل أمة في كل عصر ذوقا خاصاً بها تختار ألفاظا تناسبها وتأنس بها، وتمج ألفاظا لاتستحسنها ولا تستسيغها، وذوق الأمة في حياة مستمرة، فهو كذلك في عمل مستمر إزاء الألفاظ، وأدباء كل عصر لهم معجم يخالف معاجم اللغة القديمة. فلو أن أديبا استعمل اليوم كلمة «جَبَنْبَخ» للجارية الحسناء لكفت في اسقاط قصيدته أو مقالته. ولو استعمل كلمة بُعاق للمطر أو السيل لدل على فساد ذوقه، وسوء أدبه. ومن أجل ذلك لا يستحسن في هذا العصر بعض ما كان يستحسن في عصور سابقة. فقد كان يستحسن من أبي الطيب قوله:

وترى الفضيلة لاترد فضيلة
الشمس تشرق والسحاب كَنَهْوَرا

ولكن كنهورا الآن ثقيلة في اللفظ كريهة على السمع، وهذا بديهي لايحتاج إلى اطالة - وكل من جهل هذه الحقيقة لايفلح أن يكون أديباً، لقد أراد الأستاذان الشنقيطي وحمزة فتح الله أن يحيا غريب الألفاظ ويستعملاه في قولهم وكتابتهم ففشلا كل الفشل. وكان الناس يستظرفون ذلك منهما كما تستظرف فتاة حضرية لبست ثياب بدوية، وفهموا أن ذلك ليس جدا من القول، وليس طبيعيا أن تعيش بداوة القرن السابع في حضارة القرن العشرين. إنما يحيا الأديب يوم يوفق لاختيار الألفاظ الرشيقة التي تناسب ذوق عصره، والعصر الآن أميل إلى السرعة والاقتصاد، وكلاهما يتطلب الوضوح

(١) السعدان نبت من أفضل مراعي الابل، وفي المثل: (مرعى ولا كالسعدان)

والجلاء لا الغموض والغرابة .

لذلك أصبحت فى معاجم لغتنا ألفاظ كثيرة ليس لها قيمة إلا أنها أثرية تحفظ فيها كما تحفظ التحف فى دار الآثار .

والضرب الثانى : ألفاظ تخلق خلقا ، تلك الألفاظ التى تساير المدنية الحديثة بكل ما اخترعت من أدوات وصناعات ، وما ابتكرت من فن وعلم ومعان وآراء . واللغة العربية اليوم قاصرة كل القصور فى هذا الباب ، فليس لدينا ألفاظ لكثير مما اخترع وابتكر ، وهذه مشكلة المشاكل اليوم وقبل اليوم تجادل العالم العربى فيها طويلا ولما يستقر على حال

وكان لقصور الألفاظ أثر كبير فى ضعف الأدب . فكيف يستطيع الأديب أن يصف حجرة وكل ما فيها من أثاث ليس له ألفاظ تدل عليه ؟ وكيف يستطيع الكاتب أن يؤلف رواية ، وهو فى كل خطوة يعثر بمسميات لا أسماء لها ؟ ولذلك يهرب كثير من الأدباء من التعبير الخاص الى التعبير العام ، فاذا أراد أن يصف رجلا يلبس طربوشا قال إنه يلبس عمامة أو قلنسوة ، والحقيقة أنه لا يلبس عمامة ولا قلنسوة ، وإنما يلبس طربوشا ، واذا أراد أن يقول إنه يضرب على البيانو قال إنه عزف على آلة موسيقية ، وهذا منتهى الفقر فى التعبير .

كل هذا حقن الأفكار فى أدمغة الأدباء ، وسبب ضعف الوصف والرواية وغيرهما فى الأدب العربى الحديث ، وجعل الأدباء يفرون الى الموضوعات الانسانية العامة ، والأفكار الميتافيزيقية ، فان نحن شئنا أن يكون الادب ظلا لحياتنا ، وحياتنا الآن ، وجب أن نحل مشكلة الألفاظ حتى يطلق الأدباء من أغلالهم ، وإلا ظلوا يدورون حول أنفسهم ، وظل أدبهم غذاء ناقصا للامة ليس فيه كل العناصر التى لابد منها للحياة .

وهناك تجديد فى مناحى أخرى غير الألفاظ نعرض لها فى مقالات تالية إن شاء الله ؟

أبولو

الثور فى مستودع الخزف

للدكتور محمد عوض محمد

جعل الثور يطوف فى نواحى المدينة ، ويجول فى طرقاتها فى ساعة غفل فيها الرعاة ، وغاب الحراس . فلم يزل يمشى على غير هدًى ، حتى ساقه القدر المحتوم إلى مستودع الخزف :

فى دار صغيرة متعددة الحجرات . جمع أهل المدينة تراثهم الخالد — أو الذى حسبوه خالداً — من خزف قديم وحديث .

وصناعة الخزف أقدم صناعات الانسان جميعاً ، بدأ يمارسها منذ آلاف السنين ، وهو بعد فى مثل سذاجة الأطفال ، فكانت فى العصور الأولى شكولا ساذجة ، وصوراً بسيطة . يراد بها النفع والفائدة ، لا الزينة والحسن . فلا نقش فيها ولا تزويق ، ولا إتقان فى الصنع ولا إبداع . ثم لم تزل ترقى برقى الانسان ، وتمشى وإياه جنباً إلى جنب ، وتحاكيه فى تقدمه ورقيه ، حتى غدت فناً من أجل الفنون ، وصناعة من أشرف الصناعات . وأبدع فيها الخيال البشرى أيما إبداع ، فأصبح منها اليوم ما يعد تحفة القرون وفخار الفنون .

* * *

وهذه المدينة عريقة فى صناعة الخزف البديع ، قد نبغ فيها فى جميع العصور ، رهط من كبار رجال الفن ، فرفعوا فى العالم ذكرها ، وحلقت شهرتها فى سماء الفنون . ولم يكن لها فى هذه الصناعة ضريب .

وفى هذه الدار الصغيرة ، قد أودع أهل المدينة خير ما أنتجته قرائح بنيها على مدى القرون ، لكى تكون معرضاً لهذه الصناعة ، يزورها الناس فى كل آونة ، فتنعم عيونهم بما فيها من جمال باهر ، وتنعم نفوسهم بما يبعثه الجمال فى النفس من سعادة وغبطة . فكان بابها مفتوحاً النهار كله ، يقصد اليها الناس على الرحب والسعة ، فى كل ساعة من الزمان .

* * *

وفى ساعة نامت فيها ملائكة السعد واليمن ، واستيقظت

أبالة النحس والشؤم . ساقت المقادير العجيبة الغريبة . ذلك الثور العنيف الخيف . إلى هذه الدار — من دون الديار جميعاً !

ولم يلبث طويلا حتى حمته أرجله إلى داخل الدار . وأجال عينيه فيما حوله . فإذا أمامه آيات الفن . مصفوفة على المناضد والرفاف : من أوانٍ قد ألبستها الحسنَ يدُ صانع ، وتعاويذ على نقشها وتصويرها البراعة والخيال . . . هنا صورٌ تمثل الطبيعة بزهرها ونورها . وخضرتها ونضرتها . وأنهارها وعيونها ، وسهلها ودوحها . ومائها وسمائها . . . وهناك صورٌ تمثل الطبيعة كما يراها خيال العبقري . لا كما يراها الناس . فيزيد في حسنها حسناً . وفي شكولها أشكالا وضروباً . . .

وها هنا صور للحياة . تذكرنا وصف أبي نواس للكؤوس ، تمثل فيها الناس في جدهم ولعبهم . وفي سرورهم وكدهم : وحين يركعون وحين يسرحون وحين يدأبون وحين يمرحون . .

ومن تماثيل ذات حسن عزيز : كأنما نصبت هنالك لتقيم المعاذير لمن عبد الأوثان . وتجد الأصنام : منها القائم الناهض ، والجاثم الرابض . والمتكئ والمستلق . والساكن الهادئ ، والثائر النافر . . بعضها قد ألبس ثوباً أو بعض ثوب . وبعضها عارٍ إلا من الحسن . وكلها آيات في الابداع والابتكار .

تبارك الأيدي القديرة . التي أحالت الطين والصلصال . إلى كل هذا الجمال والجلال ! .

***

رأى الثور هذا كله . وما برأسه إدراك للفن أو تقدير للحسن : وما في غريزته فهمٌ لهذا الجمال المتسق المؤتلف . وهذه الصناعة الباهرة الساحرة . . .

كلا . . . بل في غريزته عنف وبطش ، وتحطيم وتدمير . فأجال فيها حوله نظرة بهيم . ثم تراجع إلى الوراء قليلا . شاهراً قرنين حديدين كالفولاذ . واندفع نحو تلك التحف والطرف . وصال فيها وجال . . وهي — واأسفاه ! — هشة ضعيفة . سهلة المكسر . لاحول لها أمام العنف ولا قوة . فطاحت تلك الآيات إلى الثرى . وتناثرت قطعها الغالية في جوانب الدار !

وحاق الثور في التدمير الذي أحدثه . وكأنما راقه منظره . فأعاد الكرة ، المرة بعد المرة .

وما هي الا دقائق معدودة ، حتى لم يبق بالدار تمثال قائم ، ولا إناء منصوب ؛ بل استحالت جميعاً إلى شظايا مبعثرة ، وأجزاء متناثرة .

وقد اختلط بعضها ببعض . فما تميز العين جديدها من قديمها ، ولا طارفها من تليدها : ولا آنية من تمثال . ولا رأساً من جسم . . . لقد صارت جميعاً أكداساً من الخزف المحطم . ليس فيها من الجمال أثر . ولا يرى فيها شاهد على براعة الصناعة .

في بضع دقائق استطاع هذا البهيم العنيف أن يقضي على تراث القرون . وثمار القرائح ، وخلاصة الفن : وأن يحيل هذه الدار . ولم يكن لها نظير في جمال التنسيق ، الى دار فوضى قد شاع فيها الخراب والدمار !

***

ولم يكن بالدار غير فتاة ترعاها . هالها أن رأت ذلك الثور الخيف ، وأحست بالشر ؛ يوشك أن يحدق بالدار ومن بها . فناوأته وهو يلهو بالكسر وبالتحطيم ؛ وانطلقت تنشد النجدة والمعونة . . .

وبعد لأي أقبل الناس ، علهم أن ينقذوا البقية الباقية . فلم يجدوا بقية باقية . . .

وهل شفى الغليل أن قُتل الثور ومُزّق كل مُمزّق؟

إن دماء ثيرة الأرض جميعاً لا تعادل آية واحدة من آيات الفنون !

ويلُ الورى من عنيف أحمق خرف . كأنه الثورُ في مستودع الخزف .

رأى جمالا وفناً ليس يفهمه وهاله ما رأى من مُبدَع الطُّرف

فلم يزل مُرهفاً قرنيه . مندفعاً يجري ، فيكسر ما ألفى من التحف

كأن في صدره حقداً وموجدة لكل شيء بديع الصنع مؤتلف .

وكيف يدرك (ثور) أنّ ذي تُحفٌ للحفظ والصون . لا للمحو والتلف ؟

فلسفة برجسون

نشرت « الرسالة » الغراء بحثاً قيما لحضرة الأستاذ زكي نجيب محمود لخص فيه فلسفة برجسون أحسن تلخيص وأوفاه ؛ وهي تلك النظرية التي تسود عالم العلم الآن ، والتي صار لها الرجحان التام على كل ما خالفها من المذاهب والآراء .

وإني على شدة إعجابي بالطريقة الشيقة الواضحة التي عرض بها بحثه ، وبما دعمه من الحجج القوية ، والأدلة الساطعة التي تثبت بأجلى بيان ان الأصل في الكائن الحي هو الروح لا الجسم ، وان الروح كائن مستقل بذاته ، وانه هو الذي يسيطر على الجسم ، وهو الذي يديره ويوجهه حسب ارادته الذاتية . وان الكائنات الحية من نبات وحيوان وانسان خلقت أنواعها خلقاً مستقلا ، ووُضعت في الدرجات والمنازل التي عينتها لها الروح بمطلق ارادتها ، لا بطريق النشوء والتطور ؛ كما كانت تذهب إلى ذلك الآراء المادية البائدة .

أقول مع إعجابي بذلك وبغيره مما شيد به أركان النظرية ، وأقام عليه بناءها المحكم . أراه قد انتهى الى نتيجة لا تتفق مع هذه المقدمات ، ولا تسير مع أحكام العقل ؛ بل بعضها يناقض بعضا .

تلك النتيجة هي قوله في ختام بحثه : « هذه الحياة التي لا تفتأ تخلق وتغير وتبتدع ، والتي تلتمس الحرية من قيود المادة هي الله (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) فالله والحياة اسمان على مسمى واحد ؛ ولكنه إله ذو سلطان محدود بقيود المادة ، وليس مطلق الارادة كما تصوره الأديان ؛ إلا أنه دائب في في التخلص من أغلاله وأصفاده . وأغلب الظن ان الحياة ستظفر آخر الأمر الخ . . . »

فنرى من ذلك أنه جعل الله والحياة شيئاً واحدا ، وبعد أن وصف هذا الشيء بانه أساس الوجود وبأنه هو الخالق وهو الذي عين للحياة درجاتها ومراحلها وخلق لها أعضاءها ووظائفها ، وسخر لها المادة تسخيرا ، عاد فجعل هذا الشيء الذي هو الحياة ، وهو الروح ، وهو الله ، خاضعا لقيود المادة ، وأنه يجاهد ليتخلص منها . وهذا لعمر الحق تناقض لا يقبله العقل ولا يقول به أحد .

إنه لا بد من أحد أمرين : فاما أن تكون الروح هي الأصل في الوجود والمادة طارئة عليها أو العكس . فاذا كانت الروح هي الأصل – كما ذهب الأستاذ إلى ذلك وبرهن عليه – فلا ريب في أن هذه الروح مستقلة الارادة مالكة لتمام حريتها ، وأن وجودها لذاته لا يحتاج في قوامه إلى شيء ، وأنه مطلق . فليت شعري ما هي العوامل التي جاءت بعد ذلك وأخضعت الروح للمادة الطارئة وقيدتها باغلالها وأصفادها ؟ . أما اذا كان العكس أي اذا كانت المادة هي الأساس ، فهذا ما لا يسعنا فرضه . لان النظرية لا تقول بذلك ، بل أنها قامت على هدم هذا الأساس ، وقد نجحت في ذلك نجاحا باهرا ، حتى لا يكاد يوجد الآن من يقول به .

وعلى هذا يكون الغرض الأول – وهو أساسية الروح واستقلالها عن المادة وتسلطها عليها – هو الواجب التسليم به ، ولا يكون ثمت معنى لارتباط هذا الروح بالمادة ارتباط خضوع ، ثم لا أدري ماذا يريد الأستاذ بقوله : أن الله أو الحياة يجاهد ليتخلص من قيود المادة . فاذا فرضنا أنه نجح – كما توقع هو ذلك – فماذا يكون بعد نجاحه؟ وأي حالة يصبح عليها؟ أهي شيء غير استقلاله بذاته ونيله حريته التامة ؟ ولماذا لم يكن ذلك شأنه الآن بل ومن قبل ما دام هو الاساس في الوجود؟

أما اعتباره الحياة كائناً مستقلا ذا شخصية موجودة تدافع وتناضل عن نفسها فما ذلك إلا وهم ، لأن الحياة أمر معنوي لا يقوم الا في الذهن وليس له وجود في الخارج ، وكذلك سائر المعاني الكلية مثل العلم والإرادة والقوة فانها لا توجد في الخارج ، بل الذي يوجد منها انما هو أفراد موصوفون بالحياة أو العلم أو الارادة أو القوة ، وذلك مبسوط في كتب المتكلمين والمناطقة فلا حاجة للتوسع في شرحه هنا ؛ واذا كان الأمر كذلك فما هي تلك الحياة التي يقول بوجودها وأنها هي الله ؟ مع أننا لا نرى إلا أفراداً من الأحياء سواء أكانوا من نوع الانسان أم الحيوان أم النبات ، وفي غير أفراد هذه الأنواع لا نرى للحياة وجودا .

الحقيقة أننا لا يمكننا اساغة النتيجة التي انتهى اليها حضرة الأستاذ الباحث بالصورة التي هي عليها ، ولا يمكن التوفيق بينها وبين

المقدمات التي وضعت بين يديها . فدفعا لهذه الاشكالات، وتخلصا من هذه المتناقضات ، يجب أن نضعها على النحو الذي يحكم به العقل والمنطق ، بل الذي تقضي به البديهة : وهو أن نميز الروح التي قلنا إنها أساس الوجود، وأنها تخلق وتدبر من الروح المخلوقة والخاضعة لقوانين الوجود ونواميس المادة ، ثم نميز كذلك هذه الروح المخلوقة والتي لها صفة الحياة من المادة المائتة، ونعتبرهما متباينين في الجوهر وفي درجة الوجود ، وبعبارة أخرى تكون النتيجة هكذا :

ان للعالم روحا هي أساس وجوده، وهذه الروح موجودة لذاتها لا عن شيء آخر ، ولا لعلة ، وان وجودها مطلق ، وسلطانها غير محدود ، وأنها هي التي أوجدت كل شيء بمحض ارادتها ، وهي التي خلقت المادة وخلعت عليها الحياة بجميع مراتبها . وهذه الروح يجب أن يكون لها كل صفات الكمال والبراءة من جميع شوائب النقص ، تلك الروح هي ذات الله تبارك وتعالى .

وما نظن هذه النتيجة تكون موضع بحث فضلا عن أن تكون موضع خلاف ، لانها هي التي يحتمها العقل والتي اجمع عليها رجال العلم والفلسفة في كل عصر — إلا شواذ لا يعتد بهم ممن يقولون بالحلول أو بوحدة الوجود كسبينوزا وجيوردانو وأضرابهما .

تلك هي ملاحظتنا نقدمها الى الأستاذ الفاضل عن إخلاص ، راجين أن يحلها محلها من الاعتبار ، ولا يفوتنا هنا أن نكرر إعجابنا وعظيم اغتباطنا ببحثه النفيس وبجهوده الموفق

سيد احمد فهمي

هرمن ودروتيه

للشاعر الألماني الكبير

جوته

أخرجت لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا الكتاب . وهو من أحسن ما ألفه شاعر ألمانيا الاكبر . وقد نقله عن الالمانية الدكتور محمد عوض محمد . وكتب المقدمة الاستاذ الدكتور طه حسين . ويطلب الكتاب من المكاتب المعروفة ومن ادارة اللجنة بشارع الساحة رقم ٣٩ . وثمن النسخة خمسة قروش

خـــواطر !

ضوء !

هي موسيقى كلها نشوز . موسيقى خفافة مضطربة : يثيرها فرد بل ينبرها في الفرد يده اليمنى . وليست الموسيقى إلا تعبيراً عن الذوق والاحساس . وقد اشتهر المصريون من يوم خوفو وأترابه بالذوق الرفيع ، والاحساس السامي . . .

والمصريون أمة مرحة طروب : واذا كان هناك شك فقد بطل الشك ، وأثبت نزعة المرح فينا بائع العرقسوس ! في أحيائنا الوطنية وأنصاف الوطنية يسير هذا الرجل يحمل الى صدره آنية ضخمة ، خرج من فوهتها لوح من الثلج طويل يترجح بين البياض والسمرة . . . ويمسك بيده اليمنى وعاءين من النحاس الأصفر ، يتنافران أحياناً ؛ فاذا تجاذبا تعانقا ، وكانت قبلتهما تلك الموسيقى التي يضج لها الشارع ، وتطل عليها الملاليم ، وتملأ لها الكوبات ، ويحسوها الناس فرحين ، وتنفرج الشفاه عن لفظ الجلالة . . !!

وعلم الله أن بائع العرقسوس وشراب العرقسوس ، لا يستحقان هذا التقدير ، وليس من الذوق أن يثيرا هذه الضجة المزعومة ، وإلا كان لبائع التمرهندي أو الرمالي أو جروني أن يسير وفي معيته طبل بلدي . !!

تقليد !

يزعمون أن التقليد لا يفيد ، وأن المقلد أعرج بالقياس إلى صاحب الفكرة ، أو كالتل بالنسبة للجبل . ويعطينا الزاعمون أمثلة من الأدب . فيقولون : إن الأدب الروماني ظل للأدب اليوناني ، ولهذا كان الأدب الروماني ضعيفاً بالقياس الى أدب اليونان . ثم يعرجون على حياة الجماعة ، فيقولون : إن تقليد الناس للناس في مظاهر حياتهم معناه أن المقلد يستمر على ذيل القافلة يتطلع ولا يتقدم ، ويبصر ولا يفكر .

وسواء أكان هذا الرأي صواباً أم خطأ فأنا أرى أن تقليد الانسان للانسان هو قضاء على تفكير المقلد، وعبودية

لعبقريته الكامنة. وأن النفس التي تعيش على تفكير نفس أخرى، أجدر بالزراية وأحق بالتثريب.

فتياتنا في مصر أردن خلع البراقع وأردن تقليد الغربيات، فماذا اخترن لرؤوسهن من لباس؟ اخترن «البيريه»، وما أعجب وضع هذا البيريه على الرأس! ذلك الوضع الذي يحتاج إلى حارس يراقب رأس الآنسة! محافظة على ذلك البيريه الذي تنافر مع معظم الرأس وتجاذب مع بعضه، مصغياً إلى الشمال جداً..! وحسب موقع البيريه من الرأس أنه يترجح بينها وبين الأرض، وأنه في حاجة الى انسان يراقبه من عثرة السقوط! أما لون البيريه فأغلب الظن أنه تقليد أعمى لجوارب كرة القدم في ملاعب القاهرة..!

أنا لا أكره البيريه وإنما أكره وضعه من الرأس ولونه السخيف...

سخاء!

لعل طبيعة السخاء في المصريين تغلب على طبائعهم جميعا، وليس يشك عاقل في أن السخاء طبيعة محبوبة ترضاها الانسانية المعذبة التي لا تجدها في كثير من الأحيان. ولكن، نعم ولكن السخاء قد يركب العقل والقلب ويصبح نوعا من الاسراف، فيه ثورة على أمن الناس وراحتهم!..

في الترام أو في السيارات العمومية تجد هذا السخاء يمتط ويعرض وتطول حباله فاذا به ثورة.. سخاء يدفعه الوفاء حيناً وتدفعه المظاهر أحياناً؛ هذا يريد أن يكلف نفسه ما وسعت فيتحمل عن صديقه عبء التذكرة... والصديق يأبى أن يستنزفه هذا الفضل، ويرغب في أن يكون سباقا في هذا المضمار!.

وتقوم ثورة تحسها في اللسان. وقد اجتمعت عنده أغلظ الايمان، وتراها في العينين الزائغتين، وفي اليدين المندفعتين، تحمل القروش إلى المحصل! وتبدأ الثورة رويداً رويداً، ثم تتكاتف الآلة، وتبرق العيون، وتندفع الأيدي: هذا يريد أن يدفع، وذاك يود أن يسبق صاحبه، والمحصل يظل حائرا، وقد وضعت يده أكثر مما يطلب، ويرجو إن أمكن أن تصل يد قبل أختها. فأغلب الظن أن يدي الصديقين تصلان معاً في فترة واحدة. وفي عاصفة من التهليل والتكبير!.

أما الراكبون فلست أشك أنهم لا يغضبون. لأنهم في هذا السخاء سواء. يعلنونه ما ملكت إيمانهم وما وسعت جيوبهم. وكم أخاف أن تقوم هذه الضجة فلا يجد أحدهما في جيبه غير ثمن تذكرته، وتصبح ثورة السخاء هباء في هباء، والناس من حولها يضحكون أو يأسفون؟!.

ابراهيم عبده

باقة من حديقة أبيقور

لأناتول فرانس

١

ماهية الحقائق العلمية

انه لخطأ كبير أن نظن الحقائق العلمية تختلف اختلافا جوهريا عن تلك التي نشاهدها كل يوم وهي أن امتازت بشيء فبسعة أحاطتها ومبلغ دقتها. أما من الوجهة العملية فالاختلاف عظيم الأهمية، ويجب ألا ننسى في نفس الوقت أن قوة الملاحظة عند العالم مقصورة على ظواهر الأشياء وما يجري في الطبيعة، ولكنها لن تستطيع أن تنفذ ألى باطن المادة أو تعرف شيئا عن حقائق الأشياء: والعين التي تستعين بالمجهر ما تزال عينا أنسانية؛ نعم أنها أكثر إبصارا من العين المجردة، ولكنهما لا تختلفان في الوسيلة. وأن العالم ليزيد من صلات الأنسان بالطبيعة ومعرفته بها، ولكن يستحيل عليه بأي حال أن يحدد الخواص الجوهرية لتلك العلاقات المتبادلة بين الاثنين، وهو يشاهد كيفية حدوث بعض الظواهر الطبيعية ولكن سبب حدوثها بمثل هذه الكيفية يبقى عليه كما هو علينا سرا محجوبا وبابا مغلقا.

وأننا لنبوء بالخيبة اللاذعة حين نتطلب في العلم قانونا

أخلاقيا . فقد كان الناس يعتقدون منذ ثلاثمائة سنة أن الأرض مركز الكون . ولكننا نعلم الآن أنها جزء من الشمس قد انفصل عنها وأن هذا الكون الذى نحن فيه كذرة التراب الهائمة أنما هو فى حركة دائمة وعمل مستمر لاينفك ينشأ ثم . يبيد وأن الأجرام السماوية لاتفتأ تموت ثم تولد ولكن من أية ناحية قد تغيرت طبائعنا وأخلاقنا بهذه الاستكشافات العظيمة ؟ أترى الأمهات قد تأثر حبهن لأطفالهن قوة وضعفا ؟ أم ترى تقديرنا لجمال المرأة قد كثر أو قل ؟ أم أن نبض قلب البطل المغوار فى صدره قد اختلف عن ذى قبل ؟ كلا ! فلتكن الأرض كبيرة أو صغيرة فماذا يعنى الناس من كل هذا ؟ أن فى سعتها مايكفى ليجعل منها مسرحا للألم والحب ، فهما منبعان متلازمان لجمالها الذى لا ينفد ، نعم الألم ما أجله وأقدسه! وما أجهلنا بقدره وقيمته! فنحن ندين له بكل ما هو حسن فينا وبكل ما يجعل الحياة جديرة بالعيش فيها ، ندين له بعاطفة الرحمة والشجاعة وسائر الفضائل ، وما الأرض إلا ذرة من الرمل فى اللانهاية المجدبة للعوالم التى تحيط بنا

ولكن إذا كان على الأرض وحدها تقاسى الخلائق المتعددة فهى أعظم قدراً من تلك العوالم بأجمعها ، بل هى كل شيء والباقى لا شيء , فبدونها لن يكون للفضيلة ولا للعقل وجود . وما هو الذكاء اذا لم يكن فناً يقصد به إبعاد الألم ؟ على انى أعلم أن هناك عقولا كبيرة قد تطلعت إلى آمال أخرى غير هذا ، فقد كان رينان يعلل نفسه فى فرح الواثق بحلم هو انتظار قانون أخلاق مؤسس على العلم إذ كان يثق به ثقة لا حد لها ، وكان يعتقد أنه ما دام العلم قد استطاع أن يتخذ فى الجبال نفقاً فلن يعجز عن تغيير العالم برمته فى المستقبل . ولكنى لا أظن مثله أنه قادر على أن يجعل منا آلهة كاملة . والحق أقول أننى لا أريد ذلك ولا أرغب فيه ، فانى لا أحس فى نفسى عناصر الألوهية بعد غض النظر عن بساطتى ، فضعفى عزيز على محبب الى وهو نقص ولكنه أهم مميزات وجودى .

سذاجة العلماء

لقد عهدت العلماء كالأطفال فى سذاجتهم وبعدهم عن الادعاء ، وفى كل يوم نلتقى أدعياء يتوهمون أنهم محور العالم ، ومن المؤسف أن يعتبر كل منا نفسه مركز الكون . وهذا وهم شائع فى جميع الناس لايخلو منه الكناس العابر تتيه به عيناه حين ينظر حوله فيرى قبة السماء تستدير به من كل الجهات ، جاعلة إياه مركز السماء والأرض وقد يتزعزع هذا الاعتقاد فى نفس من يفكر تفكيراً عميقاً ، فالتواضع وهو شيء نادر بين المتعلمين مازال أندر منه بين الجاهلين !

ماهية الجهل

الجهل شرط ضرورى لابد منه لا للسعادة فحسب بل للحياة نفسها . فلو أحطنا بكل شيء علما لما استطعنا احتمال الوجود ساعة واحدة ، لأن الشعور الذى يحببه الينا أو يجعله محتملا على الأقل انما ينبع من الأباطيل ويتغذى بالأوهام . فلو استطاع إنسان أن يستحوذ كالا له على الحق المطلق ثم يفلته من يديه لبادت الدنيا واختفى العالم كما يختفى الظل ، فالحق الالهى كيوم القيامة يسحق هذا الوجود سحقاً

حنفى غالى

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

نقلها إلى العربية

الأستاذ أحمد حسن الزيات



القصة المصرية

للأستاذ جيب

أستاذ الأدب العربى فى مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن

جاء ابتداء ظهور القصة كفن من فنون الأدب فى مصر متأخراً، الى حد أننا نلتمس العذر لمن يدرس الأدب المصرى، اذا هو رجع الى ما أنتجته من قبل «مدرسة الكتاب السوريين» من الآثار ليبحث عما اذا كان هناك فى الأصل علاقة بينها وبين نمو القصة.

وفيما عدا ما يحتمل من أن نجاح القصصيين من السوريين قد شجع الكتاب المصريين على انتاج نوع من القصص يلائم شعبهم، ستبقى (القصة المصرية) وهى موضوع هذا المقال، أثناء البحث مستقلة تمام الاستقلال عن تاريخ القصة السورية.

أما المؤثرات الغربية، فقد ظهرت بوضوح فيما ولى ذلك من الأطوار كما أنها استخدمت استخداما مباشرا، ولكن على الرغم من هذا فان «آداب التسلية» فى مصر قد ظلت لمدة طويلة تعتمد على ما خلفه العرب من النماذج الأدبية العالية، والنماذج العرفية التى درج الناس عليها. فلما آن لها أن تتحرر من تبعيتها لتلك النماذج كان تحررها بطيء وبعد تردد، ومن ثم كان نجاحها فى ذلك الاتجاه فردياً موزعا، ولم يكن نتيجة لحركة تطور مستقيمة.

ونحن فى الواقع اذا أردنا أن نتحدث عن «نمو» القصة فى مصر، فلا بد أن نمد فى معنى هذا اللفظ «القصة» حتى يشمل شعبة واسعة من فنون الكتابة يربطها جميعاً رباط الخيال القصصى، وان كان بينها كثير لا يمكننا مطلقا أن نعتبره قصة اذا قصدنا المعنى الحقيقى لهذا اللفظ.

ويعزى تأخر مصر فى هـذا الميدان، ميدان القصة، اذا هى قورنت بتركيا والهند — وهما المركزان الأساسيان الآخران للثقافة الاسلامية — الى عدة عوامل أوضحناها فى مقال سابق فى صدد الكلام عن الأسباب الأدبية. والأسباب التعليمية التى كانت عقبة فى سبيل ظهور آداب للتسلية من نوع جديد فى مصر. ونستطيع أن نضيف اليوم الى تلك العوامل أن المصريين وجدوا غنية ومتاعا فيما خلفه العرب من آداب عالية متنوعة، مما لم يكن له مثيل فى كلتا اللغتين التركية والأردية [1]. وهناك بعض عوامل محلية خاصة سنعرض لها فى شىء من التفصيل فى بحثنا هذا، ولكنا نحب أن نشير الآن الى تلك الحقيقة التى تحوى شيئاً مما سنعرض له. وهى أن تلك الطبقة المحصورة التى تعلمت تعلما حديثاً فى مصر، كانت تستطيع أن تجد بغيتها فى الأدب الفرنسى والأدب الانجليزى. ومن أجل ذلك انعدمت فى الدوائر الأدبية البواعث التى تشجع على تأليف كتب التسلية بالعربية. فلما مست الحاجة الى هذا النوع من الكتب، كان المسلك الطبيعى الذى سلكه الأدباء هو اقبالهم على ترجمة القصص الفرنسية والانجليزية، وفضلوا ذلك على أن يقوموا بانتاج أدب قصصى جديد لا يرجون له انتشاراً، اذ كان ذلك العمل يتطلب منهم خلق فن جديد من فنون الكتابة.

ولما كانت هذه القصص قد ترجمت ترجمة سقيمة، ولم يراع فى اختيارها حالة مصر الاجتماعية، ولا حالة الثقافة العامة، ولا الذوق الأدبى فى البلاد. فان قبول القراء لها على الرغم من عيوبها ليدل على انه كان هناك شعب يتذوق هذا النوع من الأدب ويقدره حق قدره.

على أن هناك كتاباً يصح اعتباره مقياسا للكياسة والمهارة اللتين ينبغى أن يتصف بهما من يريد القيام بترجمة قصة أوربية، بحيث يجعلها تلائم ذوق شعب ثقافته اسلامية كالشعب المصرى،

---

[1] Urdu

ذلك الكتاب هو ترجمة عثمان جلال لقصة « بول وفرجيني » فان تلك الترجمة على ما بها من الاختصار والتصرف في الجملة ظلت محافظة على الروح الأصلية وعلى ما جاء في الاصل من المعاني . أضف الى ذلك أن استعمال السجع في عبارات سهلة . ووضع المؤلف بعض المقطوعات الشعرية محل الافكار الفلسفية التي وردت في الاصل ، قد أكسب هذه الترجمة مسحة عربية ، لم توجد مع الاسف في معظم ما عاصرها أو جاء بعدها من الكتب المترجمة . ويمكننا أن نستشهد على ذلك بالفقرة الآتية :

« وما أنت أيتها الصغيرة فلا عذر لك في السفر . ولا بد من تسليمك للقضاء والقدر ، وأن تطيعي أمر الاقارب وان ظلموا وأن تسلمي لما به حكموا ، فان سفرك وان كان لأحد برضاه ، فهو على ما حكم الله . فقد أنزل تعالى في كتابه العظيم ، على لسان نبيه الكريم : قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة في القربى ، وان سفرك ان شاء الله لنعم العقبى ، أفتعصين الله ما أمر ، أم تسلمين للقدر »

وهناك غير هذا الكتاب مئات أخرى بينها عدد ليس بالقليل حرص فيه المترجمون على الأصل الى درجة تختلف قلة وكثرة عما ذكرنا ، ونخص بالذكر تلك التراجم التي قام بها المنفلوطي ، وان كان ينقصها كثير من مزايا ترجمة عثمان جلال ، على الرغم من براعة أسلوب المنفلوطي . والذي يعنينا في هذا الصدد الكتب المترجمة من أنها كثيرة وأنها صادفت رواجا عظيما .

ونستطيع أن نتبين ميل الكتاب المصريين الى المحافظة على ماخلفه لهم العرب من الأوضاع الأدبية التقليدية . (الا أن يضيفوا اليه بعض العناصر الجديدة) في تلك القصة التي تعد أول قصة مصرية بالمعنى الذي أشرت الى وجوب اعتباره في صدد الكلام عن القصة المصرية . وهي « رواية عذراء الهند أو تمدن الفراعنة لمنشئها الضعيف احمد شوقي » عام ١٨٩٧ . وهي من أوائل مؤلفات الشاعر النابه احمد شوقي . ولم توضع هذه القصة على نمط قصص ألف ليلة وليلة أو على طراز قصص السيرة ، وانما وضعت على نمط تلك الأقاصيص الخرافية الشهيرة التي تعرف « بالحواديت »¹ . وقد سار المؤلف في توسيعها على الطريقة التي تتبع في « القصص التاريخية » . على أني أقرر صراحة أن هذه القصة مما لايمكن أن يستسيغه العقل ، من حيث الخطة ومن حيث ما حشر فيها حشراً من المخلوقات الخرافية كالسحرة والعرافين ، مما لاتكاد تخلو منه صفحة من صفحاتها ، ولكنها ورثت عما سبقها من « الحواديت » المشهورة ميلا شديداً الى الحركة والمخاطرة فعوض ذلك عليها بعض مساوئها ، وانا لنشعر بشيء من اللذة أثناء قراءة الصفحات التي لم نحشر فيها الخرافيات لانها تعد بين القصص الحي .

أما ماتدين به تلك القصة « للقصة التاريخية » فهو طريقة سرد التاريخ في ثنايا القصة . ولقد تعرضت هذه القصة لشرح عظمة مصر القديمة . وهي جديرة بالاعتبار من هذه الناحية . على أن خطرها الحقيقي انما يرجع الى أنها كتبت بذلك الأسلوب الفخم الذي قلد شوقي زعامة الشعر في الادب المصري . ويعد النثر المسجوع فيها من أفصح ماعرف من هذا النوع ولقد كانت الفقرات تجري على روي واحد أربع مرات أو خمسا في غير إملال . وكانت تتخلل هذه الفقرات بعض المقطوعات الشعرية الرائعة للمؤلف . وأن الانسان ليأسف على انه لم يتح لهذا الأسلوب موضوع آخر ومواد أخرى غير التي استعمل فيها .

بجانب تلك المحاولة التي قام بها شوقي ، ظهرت محاولة أخرى بعد ذلك ببضع سنوات كانت أبعد نجاحا وأعظم أثرا وهي التجاء الكتاب الى ذلك الضرب المعروف بالمقامات . وهي تعد في نظر من يدرسون الأدب العربي في العصور الوسطى أقرب ضروب الكتابة في ذلك الوقت الى القصة بمعناها الحقيقي . ولقد ظلت المقامة تستعمل في شكلها التقليدي حتى أواخر القرن التاسع عشر . وعلى الاخص على يد ناصيف اليازجي وعبد الله باشا فكري ، ولكنها كانت في يدي هذين الرجلين وغيرهما من كتاب مدرستهما مقصورة على الموضوعات القديمة ولم يكن لها بحياة عصرهم غير ارتباط قليل .

ولكن ظهر بجانب هذه المقامات نوع آخر لجأ اليه الكتاب فيما طرقوه من الموضوعات وعلى الاخص في النقد الاجتماعي : وأقبل عليه عدد من الكتاب المصريين فأخرجوا طائفة من الآثار الادبية : كانت أحدى المظاهر الخاصة التي امتاز بها الانتاج الادبي في السنوات العشر التي سبقت عام ١٩١٤ وبعد « حديث عيسى ابن هشام » لمحمد ابراهيم المويلحي (١٨٥٨ - ١٩٣٠) أقدم وأحسن تلك المجموعة الجديدة ، بل ان هذا الكتاب في تصوراته وطريقته ليكاد يصل الى القصة بمعناها الحقيقي . ولقد لجأ المويلحي أيضا في ذلك الكتاب الى الخرافيات ، لأن الخيط الذي يربط أجزاءه ، هو تجارب أحد الباشوات

---

١ Hawādit « تراجع مقدمة قصة « الشيخ سيد العبيط » لمحمود تيمور ففيها بحث قيم بقلم أحد أساطين المؤلفين في اللغة العربية . (المؤلف)

الذين عاشوا فى عهد محمد على ، وقد بعث هذا الباشا من مرقده فهاله ماوجد من الظروف الاجتماعية الغريبة التى لم يألفها فى القاهرة التى استحالت إلى مدينة أوروبية . وبهذه الوسيلة تسنى للمؤلف أن ينتقد فى حوار يتسم بالعصر ، وأن يقارن ذلك بالماضى مظهرا مافى الحاضر من مساوىء ، أهمها ولع أهله بتقليد الأوربيين تقليدا مرذولا . على أن هذا الكتاب ، كما لاحظ محمود تيمور ، ينقصه الخواص الجوهرية للقصة . وأعنى بها الخطة البسيطة ، ولكنه فى تصوير الأشخاص قد نجح الى درجة جديرة بالاعتبار . ولقد أضيف الى الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب جزء آخر سمى « بالرحلة الثانية » غيرت فيه المناظر الأولى بمناظر باريس أبان المعرض العظيم عام ١٩٠٠ . وبذلك تسنى للمؤلف انتقاد مساوىء التشبه بالغربيين ، وأوضح معايب المدنية الغربية لدى منابعها . ومما هو جدير بالملاحظة أن الباشا لم يرجع ثانية الى قبره ، ذلك الى مثله فى الكتاب مايحملنا على الظن بأن المؤلف قد نسى الفكرة التى بدأ بها كتابه .

ولا يعزى نجاح هذا الكتاب وشهرته الى القصة نفسها ولا الى مغزاها بقدر مايعزى الى براعة الأسلوب والمقدرة على الوصف ، فان المؤلف يقلد تقليدا متقنا الخصائص الحسنة التى يمتاز بها أسلوب المقامة مضافا الى ذلك سهولة حديثة وظرف . ويتخلل عباراته المسجوعة حوار فى لغة سهلة حديثة . ولقد يلجأ المؤلف الى اللفظ العامى الاصطلاحى فيستعمله فى غير تردد ، وذلك على الرغم من أن الحوار نفسه كان يتطرق كثيرا الى عبارات وصفية مسهبة . وكان السجع مزيجا متقنا من القديم والحديث ، مما أكسب الأسلوب طراوة ورونقا ، وجعل القارىء يستمتع بأثر من الآثار الأدبية الحية جدير بأن ينافس آثار المنفلوطى فى الأسلوب مع تفوقه عليها فى عمق الحس وحسن الترتيب .

ونستطيع أن نضيف الى كتاب المويلحى كتابين آخرين ، جرى فيهما صاحباهما على سنة المويلحى فى اختيار طريقة المقامة للكتابة فى النقد الاجتماعى ، وان كانا أقل منه لباقة ورقة . أولهما « ليالى سطيح » لمحمد حافظ ابراهيم وهو أتوى منافس لشوقى فى زعامة الشعر المصرى (١٨٧١ - ١٩٣٢) وظهر هذا الكتاب عام ١٩٠٧ . وخطة هذا الكتاب بسيطة تتلخص فى أن جماعة من الناس كانوا يشكون فى ليال متوالية مايلاقونه من مساوىء الاحوال السائدة فى مصر ، فيجيبهم على التوالى صوت خفى مبينا أسباب مايضجون منه من المساوىء فى نثر مسجوع تتخلله بعض المقطوعات الشعرية ، واصفا لهم الدواء . على أن خطة الكتاب تأخذ بعد ذلك فى التغير تدريجا حتى يصير الجزء الأكبر منه عبارة عن محاورات فى نثر مرسل سهل تضيع فيه المعالم الأصلية للكتاب . ولقد قوبل هذا الكتاب بحماس واقبال فى الدوائر الأدبية المصرية [١] ولكن مما تلذ ملاحظته فى هذا المقام أن أصواتا عالية قد ارتفعت فى ذلك الوقت منددة باستعمال السجع فى مثل هذه المؤلفات [٢] .

أما ثانى هذين الكتابين فهو « ليالى الروح الحائر » للكاتب السياسى والمؤلف المسرحى محمد لطفى جمعة . ولقد سار المؤلف فى هذا الكتاب على طريقة المقامة بالدقة ، دون أن يلجأ الى السجع . ويلاحظ فى كتابه أثر كتاب « المدرسة السورية الامريكية » واضحا خصوصا فى هذا النوع من الأنشاء المعروف باسم الشعر المنثور أو الشعر الحر . أما المتحدث فى هذا الكتاب فهو روح غير مجسمة كما يفهم من اسمه ، وأغلب هذا الحديث فى انتقاد الأحوال الاجتماعية فى مصر ، ولقد أشار زيدان بحق الى جمال هذا الكتاب وفصاحة أسلوبه . وفى نظرى أنه فى هذه الناحية أهم منه فى الناحية الأخرى : ناحية التعمق فى الأفكار التى تعرض لشرحها .

وقبل أن أترك هذه المجموعة المتشابهة أحب أن أشير هنا الى كتاب آخر عظيم الشبه بها وان امتاز منها فى الروح ثم فى الأسلوب الى حد كبير ، ذلك هو مجموعة الفصول التى جمعت تحت عنوان « أين الأنسان » لمؤلفها الشيخ طنطاوى جوهرى . ولقد قدمت هذه الرسالة الى المؤتمر الدولى الذى انعقد فى لندن عام ١٩١١ . أما المتكلم فى هذه الرسالة فهو روح سماوية . وأما الحديث فانه يدور حول التقدم العالمى والأخاء البشرى . ولم يلجأ الكاتب الى استعمال السجع . وهذه الرسالة مفخرة للأدب العربى المصرى ، وهى جديرة بأن تكون موضوع دراسة خاصة . ولكنى أكتفى هنا بالاشارة اليها لخروجها عن موضوع بحثى .

ويمكننا أن نتبين فى هذه المؤلفات عدة محاولات مجتمعة لايجاد نوع جديد من الأدب ، يسد حاجة جمهور قارىء جديد ، ويتصل بعض الاتصال بمشاكله ونظراته الى الحياة ، بحيث يسهل تناوله ، ويثير اهتمامه ، ويلائم خياله . على أن أصحابها لم يصادفوا نجاحا فى تلك المحاولات لأنها كانت أقرب الى الأدب العالى منها الى آداب التسلية ، فلم يقبل عليها الا عدد صغير من خاصة القراء .

وبدل أن يطرقوا موضوعات جديدة طريفة تسرى عن الجمهور

« البقية على صفحة ١٩ »

١ كلمكاشل ملقت بها الزاوى أو كخطوط للنفاذ على صفحات المرآة .

١ راجع المنار أغسطس ١٩٠٨ والهلال يولية ١٩٠٨ .

٢ المقتبس اكتوبر ١٩٠٨ .

ابن خلدون فى مصر

للأستاذ محمد عبد الله عنان

٢

وانه لمنظر شائق ذلك الذى يقدمه الينا ابن خلدون عن مجلسه فى ذلك اليوم ومن حوله العلماء والأكابر يشهدون الدرس الأول لذلك المفكر المبدع. وهو يحرص على تدوينه كما يحرص على تدوين الأثر الذى يعتقد انه أحدثه اذ يقول: « وانفض ذلك المجلس وقد شيعتني العيون بالتجلة والوقار »[1]. وفى ذلك ما يدل على ما كان يشعر به ابن خلدون فى كبرياء وثقة من انه كان شخصية ممتازة يجب احاطتها بمظاهر خاصة من التكريم والرعاية. ثم كانت الخطوة الثانية فى ظفره بمناصب الدولة، وتعيينه قاضيا لقضاة المالكية فى اواخر جمادى الآخرة سنة ٧٨٦ (اغسطس ١٣٨٤ م)[2] مكان القاضى المعزول جمال الدين بن خير السكندرى. وكان ارتقاءه الى هذا المنصب الذى هو رابع أربعة تعتبر من أهم مناصب الدولة ايذانا بوثوب العاصفة من حوله. واضطرام تلك الخصومات التى كدرت صفو مقامه، وادالت نفوذه. واقتلعته من المنصب غير مرة. يقول ابن خلدون فى سخرية: « وأقمت على الاشتغال بالعلم وتدريسه الى أن سخط السلطان قاضى المالكية يومئذ فى نزعة من النزعات الملوكية. فعزله واستدعانى للولاية فى مجلسه وبين امرائه. فتفاديت من ذلك. وابى الا امضاءه »[3]. وقد عرف ابن خلدون هذه « النزعات الملوكية »، وعرف انها تبطن من الشر والنقم فى معظم الأحيان أكثر مما تسبغ من العطف والنعم. ولكنه يريد أن نفهم أن ارتقاءه الى منصب القضاء لم يكن نزعة ملوكية فقط. وانما اختاره السلطان كما يقول « تأهيلا لمكانه وتنويها بذكره »

ونستطيع أن نقدر أن ولاية ابن خلدون لخطة القضاء لم تكن حادثا عاديا. فقد كان أجنبيا، وكان تقدمه فى حظوة السلطان، وفى نيل المناصب سريعاً. وكانت مناصب التدريس والقضاء دائما مطمح جمهرة الفقهاء والعلماء المحليين؛ ولم يكن مما يحسن وقعه لديهم أن يفوز بها الاجانب الوافدون دونهم. واذاً فقد تولى العلامة المغربى منصبه فى جو يشوبه كدر الخصومة والحسد. وجلس بمجلس الحكم فى المدرسة الصالحية بين القصرين. فلم يمض سوى قليل حتى ظهرت من حوله بوادر الحقد والسعاية. ويقول لنا ابن خلدون فى سبب هذه العاصفة التى ثارت حول توليه القضاء. كلاما طويلا عما كان يسود القضاء المصرى يومئذ من فساد واضطراب، وما يطبع الأحكام من غرض وهوى، وعما كان عليه معظم القضاة والمفتين والكتاب والشهود من جهل وفساد فى الذمة: وانه حاول اقامة العدل الصارم المنزه عن كل شائبة، وقمع الفساد بحزم وشدة، وسحق كل سعاية وغرض. يقول: « فقمت فى ذلك المقام المحمود، ووفيت عهد الله فى اقامة رسوم الحق وتحرى المعدلة . . لاتأخذنى فى الله لومة، ولا يرغبنى عنه جاه ولا سطوة. مسويا بين الخصمين، آخذ الحق الضعيف من الحكمين، معرضا عن الشفاعات والوسائل من الجانبين. جانحا الى التثبت فى سماع البينات. والنظر فى عدالة المنتصبين لتحمل الشهادات؛ فقد كان البر منهم مختلطاً بالفاجر، والطيب ملتبساً بالخبيث، والحكام ممسكون عن انتقادهم، فيتجاوزون عما يظهر عليهم من هناتهم، لما يموهون به من الاعتصام بأهل الشوكة. فان غالبهم مختلطون بالأمراء، معلمون للقرآن وائمة للصلوات، يلبسون عليهم بالعدالة فيظنون بهم الخير، ويقسمون الحظ من الجاه فى تزكيتهم عند القضاة، والتوسل لهم. فاعضل داؤهم، وفشت المفاسد بالتزوير والتدليس بين الناس منهم؛ ووقفت على بعضها فعاقبت فيه بموجب العقاب، ومؤلم النكال . . . » ثم يعدد نواحى الفساد التى شهدها، وجد فى إصلاحها وقمعها، وكيف مضى فى سبيله « من الصرامة وقوة الشكيمة » وكيف احتقر شفاعات الأعيان والأكابر خلافا لما اصطلح عليه زملاؤه القضاة من قبولها، حتى ثار عليه السخط من كل ناحية، وسلقته جميع الألسن وكثرت فى حقه السعاية لدى السلطان[1].

وهذا التعليل الذى يقدمه لنا ابن خلدون عن سبب الحفيظة عليه، واضطرام الخصومة حوله، معقول يحمل طابع الصراحة والصدق. بل هذا ما تسلم به التراجم المصرية المعاصرة والقريبة من عصره. فيقول ابو المحاسن مثلا مشيراً الى ولايته للقضاء: « فباشره بحرمة وافرة، وعظمة زائدة، وحمدت سيرته، ودفع رسائل أكابر الدولة، وشفاعات الاعيان، فأخذوا فى التكلم فى أمره . . . »[2]. ويقول ابن حجر والسخاوى: « فتنكر (أى ابن خلدون) للناس بحيث لم يقم لأحد من القضاة لما دخلوا للسلام عليه، مع اعتذاره لمن عيبه عليه

(١) كتاب العبر ج ٧ ص ٤٥٣ و ٤٥٤ (٢) المنهل الصافى ج ٢ ص ٢٠٩

(١) نسخة التعريف الخطية ص ٩١

(٢) يذكر ابن خلدون ان تعيينه فى هذا المنصب وقع لأول مرة فى رجب سنه ٧٨٦ ولكن الروايات المصرية كلها متفقة على أن هذا التعيين كان فى جمادى الآخرة (السخاوى فى الضوء اللامع؛ وابن تغرى بردى فى المنهل الصافى كل فى ترجمته لابن خلدون — والسيوطى فى حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٢٣). ولكن يبدو من رواية ابن خلدون انه بدأ مباشرة وظيفته فى رجب، وانه يحمل من التعين وبدأ العمل واقعة واحدة

(٣) نسخة التعريف الخطية ص ٩١

فى الجلة . وفتك فى كثير من أعيان الموقعين والشهود ، وصار يعزر بالصفع ، وسمه الزج ، فاذا غضب على إنسان ، قال زجوه فيصفع حتى تحمر رقبته »[1] . وفيما ينقل السخاوى قصد الى التعريض والانتقاص ، ويرى أنه شديد الوطأة على ابن خلدون يشتد فى نقده وتجريحه : ولكن فى قوله ما يؤيد أن ابن خلدون كان يصدر فى قضائه عن نزاهة وحزم وصرامة : بل هو يشهد لابن خلدون بذلك صراحة ، حينما يقول عنه فى موضع آخر : « ولم يشتهر عنه فى منصبه الا الصيانة . . »

انقضت العاصفة على ابن خلدون اذا لأشهر قلائل من ولايته وكثر السعى فى حقه والاغراء به حتى « أظلم الجو بينه وبين أهل الدولة » على حد تعبيره . وفقد حظوته وما كان يتمتع به من عطف ومؤازرة . واصابته فى ذلك الحين نكبة أخرى هى هلاك زوجه وولده وماله . وكان منذ مقدمه ينتظر لحاق اسرته به : ولكن سلطان تونس حجزها عن السفر ليرغمه بذلك على العودة الى تونس فتوسل الى السلطان الظاهر ان يشفع لديه فى تخلية سبيل اسرته به . ففعل . وأطلق سراح الأسرة وركبت البحر الى مصر . ويروى لنا ابن خلدون نبأ الفاجعة فى قوله : « ووافق ذلك مصابى بالأهل والولد . وصلوا من المغرب فى السفين . فأصابها قاصف من الريح ، فغرقت . وذهب الموجود والسكن والمولود : فعظم المصاب والجزع . ورجح الزهد . واعتزمت على الخروج عن المنصب » ولم يمض سوى قليل حتى أقيل المؤرخ من منصب القضاء . أو بعبارة أخرى . حتى عزل . بيد انه يريد أن نفهم أن هذا العزل جاء محققا لرغبته اذ يقول : « وشملنى نعمة السلطان أيده الله فى النظر بعين الرحمة ، وتخلية سبيلى من هذه العهدة التى لم أطق حملها . ولا عرفت فيما زعموا مصطلحها . فردها الى صاحبها الاول ، وأنشطنى من عقالها : فانطلقت حميد الأثر مشيعا من الكافة بالأسف والدعاء وحميد الثناء . تلحظنى العيون بالرحمة . وتناجى الآمال فى بالعودة »[1]

والخلاصة ان ابن خلدون يؤكد لنا ان عزله كان نتيجة التحامل والحقد والسعاية فقط ، وانه أثار استياء وأسفا فى المجتمع القاهرى : وانه غادر منصبه موفور الكرامة والهيبة . بيد اننا سنرى حسبما يبدو فى قوله المتقدم انه كان يرمى بجهل الأحكام والاجراءات وانه لم يكن بذلك أهلا لتولى القضاء : وانه كان شغوفا بالمنصب أشد ما يكون حرصا عليه

وكان عزل ابن خلدون عن منصب القضاء لأول مرة فى السابع من جمادى الأولى سنة ٧٨٧ هـ (يوليه ١٣٨٥ م) . اعنى لنحو عام فقط من ولايته . فانقطع الى الدرس والتأليف كرة أخرى

على أن هذا العزل لم يكن إيذانا بسخط السلطان ونقمته : فقد لبث ابن خلدون فى منصب التدريس بالقمحية : ولم يمض سوى قليل حتى عينه السلطان أيضا لتدريس الفقه المالكى بمدرسته الجديدة التى أنشأها فى حى بين القصرين (المدرسة الظاهرية البرقوقية) . واحتفل ابن خلدون كعادته بالدرس الاول ، وألقى خطابا بليغا يدعو فيه للسلطان ، ويعتذر عن قصوره فى تواضع ظريف . وشغل بالدرس فى المعهدين حتى كان موسم الحج عام تسعة وثمانين . فاعتزم عندئذ اداء الفريضة . وأذن له السلطان وغمره بعطائه . وغادر القاهرة فى منتصف شعبان : وقصد الى الحجاز بطريق البحر : ثم عاد بعد اداء الفريضة ، بطريق البحر أيضا حتى القصير : ثم اخترق الصعيد بطريق النيل . فوصل القاهرة فى جمادى الأولى سنة تسعين (٧٩٠ هـ) : وقصد السلطان توا وأخبره بأنه دعا له فى الأماكن المقدسة . فتلقاه بالعطف والرعاية . ثم خلا كرسى الحديث بمدرسة صرغتمش[1] فولاه السلطان اياه بدلا من تدريس الفقه بالمدرسة السلطانية : وجلس للتدريس فيها فى المحرم سنة إحدى وتسعين ، وألقى خطاب الافتتاح كعادته فى حفل فخم ، وأعلن أنه قد قرر للقراءة فى هذا الدرس كتاب الموطأ للامام مالك : ويعرفنا ابن خلدون بموضوع درسه الأول فى ذلك اليوم . فقد تكلم فيه عن مالك ونشأته وحياته وكيفية ذيوع مذهبه ، ثم يقول لنا فى كبريائه المعهود : « وانفض ذلك المجلس . وقد لاحظتنى بالتجلة والوقار العيون ، واستشعرت اهليتى للمناصب القلوب . وأخلص النجا فى ذلك الخاصة والجمهور »[2]

« النقل ممنوع » « البحث بقية »

(١) ابن حجر فى رفع الاصر والسخاوى فى الضوء اللامع المجلد الثانى من القسم الثانى ص ٢٦٨

(١) كان موقع هذه المدرسة شمال الجامع الطولونى على مقربة من القلعة

(٢) التعريف (النسخة الخطية) ص ١٢١

(القصة المصرية — بقية المنشور على صفحة ١٧)

ما يلاقيه من متاعب الحياة نراهم يوجهون اهتمامهم الى هذه المتاعب نفسها فيتناولونها بالدرس والتحليل . وأدهى من ذلك أنهم كانوا يسلكون فى كتاباتهم طريقة الوعظ الجافة . أضف الى ذلك أنهم لم يسلموا من تسلط الفكرة القديمة ، فكرة العصور الوسطى ، التى تنظر الى الأدب كوسيلة من وسائل المباهاة والظهور . سواء فى ذلك من ساروا على الطريقة القديمة أو من قاموا بترجمة بعض المؤلفات الغربية كعثمان جلال والمنفلوطى ولم يخل الكتاب السوريون من التشيع بهذه الفكرة أيضا وحتى كتاب الأقاصيص التافهة التى تركت فى زوايا النسيان الذى استحقته منذ ظهورها ، قد قصدوا فى كتابتهم الى ذلك الغرض الوعظى الخلقى . ويظهر لنا من هذا أن أولئك الكتاب كانوا ينظرون الى القصص التى تكتب للجمهور نظرة ازدراء مما كان له أكبر الاثر فى تأخر نمو القصة كفن من فنون الأدب العربى .

أثر اللغة العربيـــــة

فى العالم الاسلامى

للسير دنسون روس
مدير مدرسة اللغات الشرقية بلندن

— ٢ —

الهند :

سأبدأ الآن بالهند مبيناً ما تدين به تلك البلاد للعرب . وكلكم تعلمون أن الفتوح الأولى للقوات الاسلامية فى الهند ، لم تذهب بهم بعيداً داخل تلك البلاد ، ومن ثم كانت قليلة الأثر هناك ، ولكن الأتراك فى القرن العاشر استطاعوا أن يتوغلوا بالاسلام الى مسافات بعيدة داخل الهند ، إلى أن كان القرن الثالث عشر ، وهنا نرى أول ملك اسلامى يتبوأ عرش (دلهى) .

ولننظر الآن ما كانت عليه أحوال تلك البلاد فى ذلك الوقت ، نرى قبل كل شىء أنه كان يوجد فى الهند آداب واسعة ، هندوكية وبوذية ، وكانت تتجلى فى اللغات الكلاسيكية التى لم يكن يفهمها إلا طائفة محصورة من الناس . ثم يأتى بعد ذلك أن الهنود كانوا وثنيين ، وأنهم كانوا أول عدو من غير أهل الكتاب صادفهم المسلمون .

ويعتبر فى الحقيقة أتراك أواسط آسيا أول من نشر الاسلام بشكل واسع فى الهند ، وكان هؤلاء الأتراك يتكلمون التركية بينما كانت ثقافتهم فارسية ، وهى تلك الثقافة الفارسية الحديثة ، التى ظهرت فجأة فى بلاط (سمندس) فى بخارى .

وعلى ذلك يكون الاسلام قد أدخل فى الهند لغتين : العربية لغة الدين ، والفارسية لغة الشعر ؛ وكانت العلاقة الوثيقة بين اللغة الفارسية ، واللهجات السائدة فى الهند الشمالية ، هى بلا شك السبب فى أن مسلمى الهند قد اختاروا الفارسية واسطة لآدابهم دون العربية والتركية . واستمر الحال كذلك بينهم حتى القرن الخامس عشر ، إذ لم تصل اللغة الأردية — وهى خليط من الهندية والفارسية ، إلى المستوى الذى تصلح معه لأن تكون واسطة أدبية — إلا فى ذلك القرن .

ولم يك مسلمو الهند قادرين على تذوق العبقرية التى امتازت بها العربية بالسرعة التى كانت عند غيرهم من الفرس . ولكن حدث على مر الأيام أن أنجبت الهند أدباء نابهين . ومما هو جدير بالملاحظة أن بعضاً من النصوص العربية(١) الأنيقة كان من وضع أدباء الهند فى العصور الأخيرة

وإنى أميل بعد ذلك إلى أن أقرر أن أعظم تغيير أحدثته الثقافة الاسلامية ، بعد ذلك التغيير الهائل ، وهو دخول هذا العدد العظيم من الهند فى دين التوحيد ، إنما هو ما طرأ على الهنود من الميل الى تذوق التاريخ

فان هذا العلم لم يصادف هوى فى قلوب الهنود من قبل ، اذ كان يعتبر أمراً ماديا صرفا فى نظر قوم مفكرين وفلاسفة بالسليقة . وهذا هو السبب فى أن التاريخ الهندى القديم تدجع بصورة عظيمة . وكان الاعتماد فى جمعه على ما عثر عليه من الهياكل والتماثيل ، دون أن يكون هناك بجانب هذه الأشياء مخلفات كتابية .

ولا تزال التواريخ بل القرون التى ظهر فيها بعض الحكماء الأولين موضع جدل ومناقشة . فلما ظهرت الهند الاسلامية ، دبت الحماسة فى قلوب الناس فجأة نحو كتابة التاريخ . وكان من نتيجة ذلك أن دونت مع التوسع أخبار جميع ملوك دلهى ابتداء من القرن الثالث عشر .

وينبغى ألا يفوتنى هنا أن أذكر ادخال الحروف الهجائية العربية فى الهند ، وانتشار الكتابة بين الناس على العموم ، فى بلد كان كل ما يتعلق بالعلم والكتابة فيه محصوراً فى أيدى البراهمة

أواسط آسيا وبلاد فارس :

مهما أطنبنا فى وصف الأثر الذى تركه تعلم اللغة العربية فى عقول سكان أواسط آسيا والهند ، فلن يعد ذلك منا إسرافا أو مبالغة ، فان الأثر الذى تركته العربية فى عقول الأتراك والفرس ، ومسلمى الهند ، كان أجل شأنا وأعظم خطراً من الأثر الذى تركته اللاتينية فى عقول الأدباء من أهل أوربا فى العصور الوسطى .

نعم أن اللاتينية كانت الواسطة للكتابات الدينية والعلمية . لم يكن هناك ميزة أخرى من ورائها سوى تلك المهارة الأدبية التى كان يتصف بها كل من تعلمها . إذ كان قبل حركة الاحياء الكاثوليكية بزمن طويل ، نصف سكان أوربا ينظمون الشعر ويتغنون به ، كما أن بعض اللغات كانت قد اتخذت فعلا شكلا

(١) Arabic Diction

عدوداً ، واصطبغت بصبغة البيئة التي وجدت فيها .

ولم يكن الأمر كذلك في العربية ، فان العربية قد أمدت المستنيرين في أواسط آسيا بثقافة تعتبر جديدة من جميع الوجوه . وبثت في قلوب هؤلاء أفكارا طريفة ، وفتحت أمام أعينهم عوالم جديدة ، وبعبارة أخرى ، فان العربية أمدت الفرس والأتراك والهنود بلغة جديدة ، ولا غرابة في ذلك ، فانه بالقضاء على الديانات القديمة قضاء ظاهراً ، وبحلول العربية محل اللغات القديمة في المسائل الأدبية ، ثم باستبدال الثقافة الاسلامية بكل ما يرجع في أصله الى الثقافة الآرية ، كل أولئك يحملنا على القول بأن العربية قد أمدت بلاد فارس بخزائن جديدة من العلم ، الى جانب لغة مكتوبة منظمة . أو قل أمدت الفرس « ببعث قومي جـديد مع ثقافة حديثة » وكل ذلك في وقت واحد ، فلقد أتحفت العربية أواسط آسيا بالشعر العربي الذي غير وجه الشعر هناك ، ثم بالفلسفة اليونانية ، وغيرها من العلوم .

ونستطيع أن نقول أن المجوسية (١) لم يكن لها إلا معنى ضئيل في عقول معظم رعايا الساسانيين ، وكان لا يفهمها إلا طائفة الكهنة ، بينما كانت لغة الكتب المقدسة وهي الفهلوية لا يكاد يفهمها إلا رجال الدين ، وطائفة الموظفين الرسميين .

فمن السهل اذن أن تصور الأثر المباشر الذي أحدثته العقائد الاسلامية في الفرس ، بله الروعة والدهشة اللتين تركهما في نفوسهم ذلك الكتاب المقدس الذي نزل بلسان سهل مبين .

هذا وينبغي ألا ننسى أنه في الأيام الأولى قبل ادخال الشكل ، وخلو العربية من الحروف التي تعين الساكن والمتحرك (٢) لم يكن من السهل قراءة اللغة العربية ، ولكن العربية كانت على أي حال أسهل من الفهلوية ، إذ كان نظام هذه الاخيرة في الكتابة أصعب نظام عرف حتى ذلك الوقت . ولكن حينما ظهرت مدارس النحو في الكوفة والبصرة ، أصبح من السهل ضبط العربية واستيعابها .

وهذا البحث يؤدي بنا الى المجال العربي ، والى فن الاملاء . ذلك الفن الذي كان حتى ذلك الوقت مجهولا تمام الجهل في فارس والهند .

أحس الناس وعلى الخصوص غير العرب منهم فضلا عن الزهو الذي داخل نفوسهم بتعلم اللغة العربية ، سرورا وميلا عظيما نحو تلك الحروف المرنة السهلة وهي الحروف الهجائية العربية . ولقد كان لهذه الحروف في نفوسهم مثل ما للصور من الجمال الفني ولاسيما اذا نقشت على ظاهر المباني ، أو اذا حفرت على الاضرحة والمقابر سواء ما كان منها ثلثاً أو كوفياً أو نسخاً

ولست — الى حد كبير — أشك في أن هذه الزخرفة الانيقة في رسم الحروف العربيـــة انما كانت نتيجة لتحريم تصوير الاشخاص في العهود الاولى . ولكن بحث هذه النقطة ربما يخرج بي بعيداً عن الموضوع .

ويجب ألا ننسى أن العرب لم يدخلوا معهم الى تلك البلاد أي شيء في شكل فني ، وأن الفرس كانت لهم تقاليد فنية ترجع الى ما يزيد على ألف سنة . ومما يدعو الى الدهشة أن الأغريق وقد حكموا الفرس فعلا نحو قرنين لم يتركوا فيها أي أثر أدبي ، كما أنهم لم يتركوا شيئا من هذا في الهند . وكذلك لم يترك فتح الفرس لمصر أي أثر في تلك البلاد . وهكذا استمر الفرس حتى الفتح الاسلامي محتفظين بآدابهم منعزلة تماما عن أي تأثير من غيرهم .

وكانت آداب الفرس محدودة من جهة الانتاج ، فلم يكن لديهم عدا بعض الكتب الدينية الا مجموعة من السير والتواريخ كما أنهم ترجموا أمثال بيدبا عن السنكريتية .

على أن بعض القطع الفهلوية تدلنا على أن الفرس قد أكثروا من الشعر ، وربما كانت « المناظرة » (١) ترجع في أصلها الى الفرس ولكن الأوزان والقوافي العربية كانت أمرا جديدا بالنسبة لهم . وان المرء ليعجب لتلك السرعة التي أخذ بها الفرس هذه الاشياء .

وأريد أن أختم كلامي بكلمة عما تدين به العربية للفرس . كلنا نعرف أن خلفاء المسلمين في دمشق وبغداد كانوا يدينون للفرس بكل المسائل المتعلقة بالحكم ونظام الملك ، ومما يذكر عن أحد الخلفاء الأمويين أنه قال : اني لأعجب من أمر هؤلاء الفرس : لقد حكموا ألف سنة دون أن يحتاجوا الينا مرة . بينما نحن لم نستطع مدة المائة سنة التي حكمناها أن نستغني عنهم لحظة ،

ان العلم الاسلامي في القرون الأولى كان يدين للاغريق بالمسائل العلمية والفلسفية ، ولكنه كان يدين للفرس بما وصل اليه من الآداب الجميلة . وما علينا لكي نعم أثر الفرس في تلك الثقافة العربية الفخمة لأن نستعيد أسماء هؤلاء الشعراء والكتاب المجيدين لنرى عدد من يرجع منهم الى الفرس من حيث الأصل أو المولد .

« محمود الخفيف »

(الرسالة) كنا وعدنا أن ننشر المحاضرتين الأخريين بعد هذه المحاضرة ، ولكننا بعد المراجعة والنظر لم نجد فيها شيئاً لم يقله أدباؤنا وعلماؤنا ؛ فاكتفينا بذلك

(١) Magianism. (٢) Vowel Sounds

(١) Minasara

١٠ ١٥

طرائف من شعر الشباب

عتاب

للأستاذ محمود الخفيف

أي ذنب جنيت؟ ان فؤادي * مذ أردت الجفاء يخفق رعبا
أي ذنب جنيت غير ودادي * أيكون الوداد عندك ذنبا؟

....

ذاك ذنبي وكيف أقلع عنه؟ * إن ذنبي تعلقي ورجائي
ذاك دائي ولست أشفق منه * فهو برئي وسلوتي وعزائي

....

كيف أجزى على الوداد جفاءا! * وأسام العذاب من غير ذنب!
كيف أرجو مع الجفاء عزاءا! * إن هذا الجفاء يذهب لبي

....

يخفق القلب إن خطرت ويهفو * وتمرين في سكون غريب
وتظنين أنني عنك أغفو * كيف أغفو ومهجتي في لهيب؟

....

لست أنسى وقد مررت سريعا * لم تبالي بحيرتي واضطرابي
نظرة منك خلفتني صريعا * نظرة الهجر والجفا والتغابي

....

أزجر القلب إذ أراك وأبدى * غضبة الحر وابتئاس الولوع
أكتم الحزن والتألم جهدي * فاذا ما مضيت فاضت دموعي

....

كنت قبل الجفاء طلق المحيا * أنهب اللهو والسعادة نهبا
كنت طوع الشباب حرا قويا * لا أرى في الحياة سهلا وصعبا

....

كنت كالسيل دافقاً لا أبالي * بملام ولا أخاف رقيبا
هادئ النفس لا أهاب الليالي * لا أرى في الوجود شيئاً رهيبا

....

كنت كالطائر المغرد ضحكا * مستفيض السرور عذب الشباب
كنت كالطفل لست أعرف شكا * مطمئن الفؤاد جم التصابي

....

أسبق الشمس كل يوم شروقا * فأحيي الصباح فوق التلال
أنزل السهل حيث شئت طليقا * مشرق الوجه ساعياً في الخيال

....

يرقص الزهر عن يميني اختيالا * وتغني الطيور صوب يساري
ويفيض الغدير عذباً زلالا * رائع الحسن مثل وجه النهار

....

كنت جم النشاط أقضي نهاري * كفراش الربيع بين الزهور
دائم الوثب لا يقر قراري * أملأ السمع من غناء الطيور

....

جعل الحب كل شيء نضيرا * وأثار الجمال كامن حسي
وسما الدهر فاغتدوت قريرا * كل ما في الوجود يبهج نفسي

....

كنت أنت الجمال ملء عيوني * كنت أنت الحياة تملك لبي
كنت أنت الهناء ملء جفوني * كنت أنت الشعور يملأ قلبي

....

كنت وحي القريض ينفث سحرا * في فؤادي فيستجيب لساني
أنظم الدر من حديثك شعرا * أين من وقعه رقيق الأغاني؟

....

أعشق الكون كله في هواك * إذ أرى الكون في هواك جميلا
أطلب المجد كي أنال رضاك * لا أرى في الجهاد عبئاً ثقيلا

....

كم سقانا السرور كأساً دهاقا * وحبانا الشباب عيشاً رضيا
كم نهلنا من الوداع رحيقا * وشربنا الغرام عذبا شهيا

....

ويح نفسي أذاك عهد تولى؟ * أم تريدين بالجفاء عتابي؟
ولعمري لقد سئمت فمهلا * آمل الوصل بعد طول العذاب؟

....

من رآني بهوله اليوم لوني * واكتئابي ولوعتي وذبولي
وهن العظم في الصبابة مني * ودهى الناس حيرتي وذهولي

....

يهمس الناس: قد علاه اصفرار * ويشير العليم في غير همس
أيها الناس إن دائي خطير * أوليس الغرام يضني ويؤسي؟

....

قتل الحب كم أحل دماء * من دماء الشباب في غير حق
ولكم أورث النفوس عناء * واستباح القلوب في غير رفق!

....

ليت قلبي يطيعني في غرامي * حطم القلب في الهوى كبريائي
أيها القلب أنت أصل سقامي * واكتئابي ومحنتي وبلائي

....

ويح نفسي! أما لهمي انتهاء؟ * كدت أقضي صبابة ونحولا
ويح قلبي! أما لقلبي ارعواء؟ * أو لم يأن أن يثوب قليلا؟

....

شهد الله، لو تحرر قلبي * لتمنيت أن يعود أسيرا
فاقتليني إذا أردت بذنبي * سوف أبقى بما جنيت فخورا

....

كدت أهوى الشقاء لولا اشتياقي * لذة الحب لوعة واضطراب
ان بعد الغياب حلو التلاقي * ويلذ الهوى ويحلو العذاب

....

أخدع القلب في الهوى وأمني * عن فؤادي بأني سأراك
ان هذا الخيال يشرح صدري * كيف بالوصل حين ألثم فاك؟

رفقاً بنفسك أيها الفلاح   تسعى وسعيك ليس فيه فلاح
لك في الصباح على عنائك غدوة   وعلى الطوى لك في المساء رواح
هذى الجراح براحتيك عميقة   ونظيرها لك في الفؤاد جراح
في الليل بيتك مثل دهرك مظلم   ما فيه لا شمع ولا مصباح
فيخر سقفك إن همت عين السما   ويطير كوخك إن تهب رياح
هذى ديونك لم يسدد بعضها   عجزاً، فكيف تسدد الأرباح؟
بغضون وجهك للشقة أسطر   وعلى جبينك للشقا ألواح
عرق الحياة يسيل منك لآلئاً   فيُزان منها للغنى وشاح
قد كان يحديك الصباح لديهم   لو فجر الصخرَ الأصم صياح
يتنازعون على امتلاك بينهم   فلهم عليك تشاجر وكفاح
كم دارت الأقداح بينهم ولم   تملأ بغير دموعك الأقداح!
حسب الولاة الحاكمون على القرى   أن ثَمَّ أجساد ولا أرواح
كيف التفاهم بين ذينك: ناعم   يشكو العذاب، وسامع مرتاح
قد أنكروا البؤس الذي بك محدق   أفينكرون الحق وهو صراح؟
ياغارس الشجر المؤمل نفعه   دعه فإن ثماره الأتراح
اقلعه فالثمر اللذيذ محرم   للغارسين وللقوى مباح
أصبحت تورثك الحقول أسى فما   يهتاج أنسك نشرها الفياح
أفنت حقولك آفة أرضية   عاثت بها وشعارها الإصلاح
سرٌّ بؤسك فاضح لذوى الغنى   لو أن سرك في البلاد يباح
ياريف إن كتاب بؤسك مشكل   يعيا بحل رموزه الشراح
أطيار روضك غالها باز العدا   وعدا على أسماكك التمساح
الورد قد خنقته أشواك الربى   ظلما وفر البلبل الصداح
ياريف مالك مشرب أهلك آجن   رنق، وشرب ولاة أمرك راح؟

النجف   أحمد الصافي النجفي

وداع

أذكري يوم أن رحلت إذ كريه   لا قضى الله بعد ذلك بينا
يوم كنا على المحطة نبغى   لو يطول الوقوف ثم علينا
قد أخذنا لنا مكاناً قصياً   فذكرنا غرامنا واشتكينا
ونخاف القطار يأتى، فنمضى   ننظر الساعة التى فى يدينا
بل خدعنا نفوسنا، بإسعاد،   وعبثنا بعقربى ساعتينا
نحسب الوقت بالدقيقة حتى   قدم (القطر) من بغتة فبكينا
ونضنين بالفراق، إلى أن   دق صوت الناقوس فى أذنينا
فركبت القطار، ثم تهادى   فبكانا، ونحن نمشى الهوينى
لم يكن بعد، غير بضع ثوان   واختفيتم عن عيننا واختفينا
افترقنا ولم نبل غليلا   ولنا اليوم أشهر ما التقينا
لا جزى الله يوم بينك خيراً   كم أسال الدموع من مقلتينا

«محمد برهام»

بعد الحب

لم تكن للحياة قبل لقائى   بك معنى، فأنت معنى حياتى
زهرُ الروض كان خلواً من العطـ   ـر فأمسى معطّر النفحات
وليالى الربيع كانت بلا سحـ   ـر فباتت ظلالها ساحراتى
وبنفسى لحن سجين عن الحب   وناىٌ مشوش الصرخات
انت أطلقته فدوّم فى الصد   رو غنى بأعذب النغمات
والهوى يصبغ الحياة بلون الـ   ورد حتى تعود شتى النبات

***

إننى ان اسفت آسف للما   ضى، تولى لم أدر طعم الحياة
هو عهد مضى، وعينى عليها   حجب من ستائر مظلمات
ثم جاء الهوى ففتح عينىّ   فأبصرت فتنة الكائنات
فإذا بالجمال يسبح فى الجو   ويسرى شذاه فى النسمات
وإذا بالجمال يسبح فى الرو   ض ويهدى شذاه للزهرات
كل ما فى الجمال حلو مع الحب   فيا حب انت سر الحياة

امين عزت الهجين



نظرات فى الأدب الفارسى

منذ نشأته إلى إغارة التتار

للدكتور عبد الوهاب عزام

– ٢ –

يروى عن الرودكى أنه نظم شعراً كثيراً جداً يقدره بعضهم بألف ألف بيت. وأنه نظم كليلة ودمنة، ولكن ليس عندنا من شعر الرودكى كله إلا قطع منها نحو ٢٤٢ رباعية، ومن الحكايات المأثورة المشهورة عن هذا الشاعر ما ذكره نظامى العروضى، أن الأمير نصر بن أحمد خرج بجيشه الى هراة فأعجب بهوائها وثمرها. وبقى يتردد فى أرجائها أربع سنين حتى ضاق العسكر ذرعاً. ولم يستطيعوا صبراً عن أوطانهم وأولادهم. فذهبوا الى الرودكى وجعلوا له خمسة آلاف دينار على أن ينظم شعراً يشوق الأمير الى بخارى. فنظم قصيدة وجاء الأمير وهو يصطبح، فغناها على المزهر فما أتم الأبيات حتى نهض الأمير مسرعاً إلى فرسه لا يصبر حتى يلبس حذاءه، وتوجه الى بخارى لا يلوى على شىء. فلم يدركه الناس إلا بعد فرسخين، وهناك قدم له الحذاء فلبسه.

وأول هذه الأبيات:

بوى جوى موليان آيد همى
بوى يار مهربان آيد همى

«ما يزال يهب علينا نسيم نهر جيحون
وما زال تنشق على بعد روح الأحباء».

ثم يؤثر عن الرودكى شعر من نوع الدوبيت أو الرباعى. وهو ضرب فارسى. فهذا أول شعراء الفرس ينظم على أساليب العرب وعلى أسلوب آخر. وهذا ينبىء بما سيكون عليه الشعر الفارسى الحديث من الجمع بين الصنعتين العربية والفارسية.

ثم نجد هذا الشاعر يسبق الى نظم القصص، إذ نظم كليلة ودمنة. وهذه ميزة أخرى من مزايا الشعر الفارسى كلف بها الشعراء من بعد.

وتوالى الشعراء من بعد الرودكى وارتقى الشعر على الزمن حتى بلغ غايته

شجع السامانيون الآداب الفارسية. وللمنصور بن نوح منهم شعر فارسى. فنبغ فى أيامهم شعراء يقاربون الثلاثين. ثم شرعوا يؤلفون ويترجمون الكتب من العربية الى الفارسية. فترجم تاريخ الطبرى وتفسيره — وألف لهم بالفارسية كتاب أبى منصور والهروى فى الطب — ومنه نسخة مخطوطة فى فينا. وهى أقدم مخطوط فارسى (سنة ٤٤٧ هـ) وألف لهم كذلك كتاب فى التفسير. فهذه الكتب الأربعة أقدم نثر فارسى بأيدينا

وأما بنو بويه فليس لهم أثر فى الأدب الفارسى، وأكثر أمرائهم كانوا شعراء فى العربية. ووزراؤهم ابن العميد، والصاحب من حملة لواء الأدب العربى. لا الفارسى، وحسبنا أن الصاحب لم يقصده به إلا شاعران فارسيان هما المنطقى والخسروى، على كثرة شعراء العربية الذين مدحوه.

وكان الزياريون فى طبرستان من حماة العلوم والآداب. ولكن شيخهم قابوس كان أميل الى العربية، وقد مدحه الخسروى السرخسى من شعراء الفرس. كما اتصل بابنه منوجهر الشاعر الفارسى الذى سمى نفسه منوجهرى تيمناً بسيده — وقد ألف كيكاوس حفيد قابوس كتابه قابوس نامه بالفارسية لتربية ابنه

وكان من المتصلين بقابوس أبو على بن سينا، وله شعر بالفارسية. وقد ألف كتابه دانش نامه علائى بعد موت قابوس. فأهداه الى علاء الدولة أبى جعفر كاكويه فى اصفهان وسماه باسمه

وكان محمود بن سبكتكين فى غزنة مقصد كبار الأدباء والعلماء، وأثر عنه وعن ابنه محمد شعر فارسى. فمن شعرائه العنصرى والأسدى، والعسجدى، والفردوسى الذى قدم له الشاهنامه، فلم يعطه محمود ما أراد فغاضبه وهجاه. وقد ألف شرف الملك من شعراء محمود كتاباً فى الديوان بالفارسية سماه كتاب الأصطفا. ويقال ان العتبى من شعراء محمود أيضاً كتب تاريخ محمود بالفارسية. وكتب البيرونى كتاب التفهيم فى النجوم بالفارسية والعربية

وفى عصر السلاجقة ، ذلك العصر المديد سطع شعراء كثيرون جداً عدهم عدنى أكثر من مائة — وأعظمهم الأنورى والخاقانى نظامى الكنجوى ، والأزرقى . وظهير الفاريابى ، وناصر خسرو والخيام ، وبابا طاهر والفصيحى . ومسعود سعد . والأديب صابر ، والمعزى ، وعمق البخارى ، وسوزنى . ونظامى العروضى ومن الصوفية : أبو سعيد بن أبى الخير ، والأنصارى . ثم مجد الدين سنائى . وفى نهاية هذا العصر فريد الدين العطار .

ولاريب أن هذا العصر أزهى عصور الشعر الفارسى —

ومن المؤلفين والكتاب فى هذا العصر نظام الملك الوزير مؤلف سياستنامه . والغزالى والسجزى الفرخى مؤلف ترجمان البلاغة فى الشعر والصناعات البديعية ، والرشيدى السمرقندى مؤلف زينت نامه فى علم الشعر . ورشيد الدين وطواط مؤلف الكتاب الذائع الصيت : حدائق السحر فى دقائق الشعر ، والبهرامى مؤلف غاية العروضيين وكنز القافية . والأسدى مؤلف لغة الفرس ، وشاهمردان بن أبى الخير مؤلف الموسوعة . نزهة نامه علائى ، ألفها لعلاء الدولة ، وعاص بك أمير طبرستان آخر القرن الخامس ، والباخرزى مؤلف دمية القصر ، ومؤلف طرب نامه وهى رباعيات فارسية ، وأبو المعالى محمد بن عبيد الله مؤلف كتاب بيان الأديان فى آخر القرن الخامس — ومن مؤلفى الصوفية الهجويرى صاحب كشف المحجوب وهو من أقدم الكتب الصوفية ، ألف فى القرن الخامس .

ومن المترجمين من العربية الى الفارسية . الجرباذقانى ، ترجم تاريخ العتبى للفارسية . وجمال القرشى مترجم الصحاح ، وفراهى الذى نظم قاموسا عربيا فارسيا يقرأ فى مدارس ايران حتى اليوم ، والزوزنى الذى كتب معجما عربيا فارسيا سماه ترجمان القرآن ، ونصر بن عبد الحميد مترجم كليلة ودمنة .

وفى العصر القصير الذى بين السلاجقة والمغول نجـد من الشعراء العطار وجلال الدين الرومى وسعدى الشيرازى وغيرهم . ونجد من المؤلفين ابن اسفنديار مؤلف تاريخ طبرستان . وفخر الدين الرازى مؤلف الاختيارات العلائية ، ونصير الدين الطوسى ، وشمس قيس مؤلف المعجم ، ومحمد عوفى مؤلف لباب الألباب .

هذه نظرة عامة غير شاملة ولا بالغة . ترينا كيف بدأ الأدب الفارسى شعرا ونثرا ، وكيف توالى مع الدول المختلفة — ويكفى هنا أن يقال إن لباب الألباب يحتوى على ٢٧ ملكا نظموا بالفارسية و٤٢ وزيراً ، و ٦٠ عالما . ويذكر من الشعراء تسعة وثلاثين ومائة .

ولأجل أن ندل على حظ الأقطار المختلفة من هذا العدد نقول : ان خراسان وهى مهد الأدب الفارسى الحديث ينالها ٣١ من العلماء الذين نظموا بالفارسية و ٥٥ من الشعراء . وما وراء النهر ١٣ من العلماء ، و٣٢ شاعرا . والعراق ١٦ من العلماء و ١٦ من الشعراء . وغزنة وما يليها ٢٢ شاعرا . فخراسان أوفرها حظا .

بعد هذا يحق لنا أن نسأل ما مميزات هـذا الأدب الفارسى الاسلامى فى الشعر والنثر ؟

فاما الشعر فيشارك الشعر العربى فى موضوعه من الهجاء والمدح والغزل والفخر والوصف . فى ميل الى المبالغة — ويمتاز بأشياء :

(١) ذكر ملوك الفرس القدماء . وابطالهم مثـل فريدون ورستم ، وزال ، وكاوس جمشيد ، وقد سرى هذا الى الشعر العربى الذى نظم فى بلاد الفرس كشعر بديع الزمان وأمثاله .

(٢) يمتاز الشـعر الفارسى بمزيتين عظيمتين : الشعر القصصى والشعر الصوفى .

فاما الشعر القصصى فقد أولع الفرس به فى كل عصر . وقد رأينا أن أبان بن عبد الحميد نظم كتاب كليلة ودمنة بالعربية . وأن الرودكى أول شعراء الفرس الكبار نظم هذا أيضا . ومن الأدلة على ولع الفرس بالقصص قصة يوسف وزليخا . فهذه القصة مأخوذة من القرآن . ولكن شعراء العرب لم يهتموا بها . وأما الفرس فقد نظموها مرارا ، نظمها من كبارهم الفردوسى وجامى . ونظمها آخرون — ورواية وامق وعذراء التى قيل انها قدمت لعبد الله بن طاهر فأمر بطرحها فى الماء : نظمها العنصرى شاعر محمود الغزنوى ، ثم الفصيحى فى رعاية كيكاوس الزيارى ونظمها أربعة شعراء آخرون .

وحسبنا شاهنامه الفردوسى التى حاكاها شعراء كثيرون فألفوا شاهنامات لم تنل مانالته من القبول والصيت : ومن القصص المنظومة رواية خسرو وكل ، وبلبل نامه لفريد الدين العطار ، وسلامان وابسال لمولانا جامى وغيرها مما لايتسع المقال لتعديدها .

وأما الشعر الصوفى فقد بدأه أبو سعيد بن أبى الخير من بلدة ميهنه بخراسان ، وابو عبد الله الانصارى من هراة . نظما فيه قطعا ورباعيات ، ولكن لم يكثر فيه التأليف الا بعد مدة طويلة . اذ نبغ طليعة فرسانه سنائى الغزنوى ثم تفاه العطار ثم تلاه إمام الصوفية مولانا جلال الدين الرومى صاحب المثنوى الذى يسمى القرآن فى اللغة الفارسية . ويقال لمؤلفه لم يكن نبيا ولكن أوتى كتابا .

ومن بعد غارات التاريخ لسان الغيب شمس الدين حافظ الشيرازى والشيخ عبد الرحمن الجامى الذى يعد آخر شعراء الفرس العظام .

والحق أن اللغة الفارسية تبذ سائر لغات العالم بهذا النوع من الشعر النفسى الانسانى الفلسفى الذى يرتفع عن جدال المذاهب وعصبيات الأجناس ، وينفذ الى بواطن الأشـياء فيرى الوحدة الالهية المتجلية فى مظاهرها العديدة ؟

(يتبع)

الأدب الياباني

للأستاذ احمد الشنتناوي

٢

إنتهينا في مقالنا الأول من الكلام عن الأدب الياباني حتى نهاية العقد الثامن من القرن التاسع عشر، أي بعد أن هدأت الثورة اليابانية الأهلية وابتدأت بوادر التجديد تظهر في جميع نواحي الحياة اليابانية كما هي العادة دائما عقب الثورات الاجتماعية الخطيرة التي تظهر في الأمم. وكان حظ الأدب الياباني من هذا التجديد عظيما إذ لم يلبث أن ظهر في الميدان الأدبي « كويو » Kôyô وهو مؤسس المدرسة الأدبية الحديثة في اليابان المسماة « أصدقاء المحبرة » وكان هو وتلاميذه وأتباعه يدينون بالمذهب الواقعي. ولا يكتبون إلا القصص المنعمة بالمشاعر الرقيقة، والتي تتزاحم فيها العواطف والنزعات المختلفة. متخذين كتاب الحياة مصدرا ومعينا لما يكتبون ويصفون. وبالرغم من تباين أتباع « كويو » في الأعمار والمراكز الاجتماعية والأزمنة التي عاشوا فيها كانوا يضربون جميعا في مؤلفاتهم على هذا الوتر الحساس الذي طرب له « كويو » فاتخذه شعارا لمدرسته الأدبية الحديثة، ونعني به المذهب الواقعي.

ولم يعمر « كويو » طويلا بل توفي في عنفوان شبابه بعد أن طبقت شهرته جميع أنحاء اليابان. وتعد قصته الموسومة « بشيطان الذهب » أبلغ أعماله الأدبية على الإطلاق. ولقد اشترك مع « كويو » في تأسيس تلك المدرسة الأدبية الحديثة أديب آخر يدعى « روهان » Rohan ولو أن هذا لم يكن يميل إلى المذهب الواقعي، بل كانت الروح الغالبة على مؤلفاته هي الروح الخيالية الدينية الفلسفية. كذلك اكتسب هذا الأديب شهرة فائقة بقصة ألفها تدعى « بوذا المدلل » وهو لم يكتب شيئا آخر غير تلك القصة، ولو أن العمر امتد به إلى ما بعد تاريخ هذا الكتاب بكثير.

وبعد الحرب الصينية اليابانية أخذت الآداب الغربية تطغى على اليابان رويدا رويدا. وكان أعظمها أثرا مؤلفات تولستوي وإبسن إذ ترجمت إلى اليابانية آثارهم وآثار غيرهم من زعماء الأدب الأوروبي أمثال موباسان وهوجو وزولا وغيرهم حوالي عام ١٨٩٦ حتى وقف العقل الياباني حائرا أمام هذا السيل الجارف من الآداب الأوروبية: وحاول « كويو » وأتباعه أن يدخلوا روحا جديدة تحليلية على الأدب الياباني، وفعلا أصدروا عدة مؤلفات تعبر أصدق تعبير عن نفسية الشعب الياباني الحديث، كما تعصب فريق آخر لأدب زولا وحاولوا تقليده.

وبعد انتهاء الحرب الروسية اليابانية التي شب أوارها عام ١٩٠٥ بعد الآداب اليابانية تزيد صبغتها الغربية وتقوى. فأننا نجد مثلا « هوجونسو » Hoguetsour أحد أساتذة جامعة (واسدا) في طوكيو يعود بعد سياحته الطويلة في ربوع أوروبا ويؤسس مدرسة أدبية حديثة هي تحوير للمدرسة الأدبية الفرنسية المعروفة بالمدرسة الطبيعية. حسبما تقتضيه البيئة اليابانية وأذواق الشعب الياباني. وأهم المبرزين في تلك المدرسة هما توسون Toson وكاتو Katou.

ثم أتت الحرب العالمية بعد ذلك فخفت صوت الآداب الأوروبية عاما. فوجدت الآداب اليابانية المجال أمامها متسعا لكي تقف بنفسها في الميدان، وتسمع صوتها للملا. فتقوم في اليابان حملة عنيفة على الأدب المكشوف، وهو شعار المدرسة الطبيعية. ويطلب أصحاب تلك الحملة بالحاح أن تكون الآداب وسيلة لطلب المثل العليا، وأنها يجب أن تسير في جو محتشم طاهر. وأصبح هؤلاء فيما بعد زعماء المدرسة « الانسانية » Humanitaire وهؤلاء لم ينجحوا إلا في القضاء على أصحاب الأدب المكشوف، ولكنهم في الوقت نفسه ظلوا في إسار الآداب الغربية. ولعل أشهر هؤلاء الجماعة وأرسخهم أدبا هو « أريزيما » Arisima وأشهر أعماله الأدبية قصته المسماة « تلك المرأة » وهي تاريخ حياة امرأة حديثة « مودرن » تمثل في جملتها العقلية اليابانية في ذلك العهد الذي تشبع بالروح الغربية، ويمكننا أن نعتبر هذه القصة مثالا لحالة الأدب الياباني في ذلك العصر الذي أغارت فيه الحضارة الغربية على بلاد الشمس المشرقة.

والمتصفح لتاريخ الأدب الياباني منذ أقدم عصوره إلى الآن يمكنه أن يلاحظ بكل وضوح مقدار اختلاف العقلية اليابانية عن العقلية الغربية. فالذي تنفرد به العقلية اليابانية هو سرعة استعدادها لاعتناق كل ما هو جديد. بل التهامه التهاما دون التأمل والنظر فيما إذا كان الطعام الذي ستتناوله في مقدرتها هضمه أم لا. وليس معنى هذا أنها عقلية عديمة القدرة على التمييز والاختيار ولكن هذا التمييز وهذا الاختيار يأتيان بعد فترة من الزمن بعد أن تملك النفس زمامها وتألف رؤية الشيء الجديد ويذهب عنها بريقه ولمعانه ويمكننا أن نذكر لك أن اليابان كانت تعشق أدب تولستوي عام ١٨٩٤ فتحولت عنه إلى سودرمان وهوبتمان عام ١٨٩٦، ثم تحولت عنها عام ١٨٩٧ إلى موباسان وزولا وهوجو ثم منهم إلى ترجينيف عام ١٨٩٨ ثم إلى نيتشه عام ١٩٠١ ثم إلى مكسيم جوركي ومترلنك عام ١٩٠٢ وأخيرا انتهى بها التنقل والمطاف إلى تشيكوف وواجنر عام ١٩٠٣. وإذا عرفنا

(البقية على صفحة ٣٧)



قصة فيلسوف عاشق

للدكتور طه حسين

٢

واتصلت زيارة أغوست كونت لأسرة كلوتيلد ، واشتدت الصلة بينه وبينها متانة وقوة ؛ وأخذت تزول من هذه الصلة بقايا هذه التكاليف الاجتماعية التى تواضع الناس عليها فى حياتهم المألوفة ، والتى لا يزيلها ولا يمحوها إلا المودة الخالصة اذا بلغت أقصاها ، أو الحب الصحيح اذا انتهى الى غايته . وألحت الأسرة فى التعريض بهذه الزيارات المتصلة ، وبهذه الصلات التى كانت تتخلص شيئاً فشيئاً من التكلف والاحتشام . وزعت الفتاة نفسها وقتاً طويلا فى أن تتحدث الى الفيلسوف بهذه الريبة التى أخذت تثور حولها فى نفوس الأسرة ؛ ولكنها انتهت الى أن أنبأته عما عندها من ذلك فاستمع لها . ولم يحتج الى تفكير وتقدير ليمتلىء قلبه سروراً وغبطة ، وليأخذه شىء من الكبرياء غريب فى ظاهر الأمر ، ولكنه مألوف عند العشاق والمحبين . وماله لا يسر ولا يغتبط والحجب ترفع كل يوم بينه وبين من يهوى ؟ وماله لا يأخذه الكبر ولا يملأه التيه وهو يثير الريبة فى نفوس الأسرة ، ويضطرهم الى أن يشعروا بحبه للفتاة وبأن الفتاة لا تزدريه ولا تفرط فى ذاته . ولا تنظر اليه فى غير عناية ولا اكتراث . لعلها لا تحبه كما يحبها ولكن فى قلبها عاطفة ما تعطفها عليه وتدفعها اليه . ومن يدرى ؟ لعل هذه العاطفة أن تنمو وتقوى وتخضع لما يخضع له الانسان بملكاته وعواطفه من التطور ، فتستحيل من المودة الخالصة الى الحب العنيف . وإذاً فماله لا يستأنف سعيه وإلحاحه ؟ وما له لا يدور حول قلب الفتاة لعله يجد سبيلا لبلوغه والوصول اليه . وقد فعل . فهذا الحنان الذى كان قد كظمه فى نفسه أو أسبغ عليه لوناً من الجد يجعله الى الود أقرب منه الى الحب ، قد أخذ يتجرد من ثوبه المتكلف ويظهر على حقيقته وفى صورته الصحيحة ، وقوته التى لا تبقى على شىء . وهذا التحفظ الذى كان اصطنعه فى الحديث يزول شيئاً فشيئاً . واذا هو صريح ، وإذاً هو يجدد إعلان الحب ، ويكرر هذا الاعلان ويحيط الفتاة بشباك من الطلب والأمل والتضرع والاستعطاف والاغراء الذى يتجه الى العقل حيناً والى الشعور حيناً آخر . وكيف تريد أن تفلت الفتاة من هذه الشباك جميعاً وهى لا تكاد تخلص من واحدة حتى تعثر فى أخرى . هى مضطرة إذاً الى أن تسالم بعض الشىء وتصانع الى حد ما ، وتنهزم عن خط الدفاع الأول كما يقولون .

وهل كانت هى فى نفسها منصرفة عن الفيلسوف حقاً راغبة عن حبه كل الرغبة ؟ لست أدرى ولكنها على كل حال عجزت عن المقاومة فكتبت الى أجوست كونت تنبئه بهذا العجز وتظهره على ذات نفسها وتبين له رأيها فى التخلص من هذا الموقف الدقيق ورأيها انها لم تكن تقدر أن أحداً يكلف بها ويتهالك عليها ، وانها هى لا تكلف بأحد ولا تتهالك على أحد ، ولكن أملها إن صح أن يكون لها أمل فى الحياة ، إنما هو طفل تقف عليه حبها وحنانها وقوتها ونشاطها . وهى إذا شاركت رجلا فى الحياة فإنما قوام هذه الشركة الوصول إلى تحقيق هذا الأمل . وهى حريصة كل الحرص على أن يكون شريكها ان ظفرت به رجلا ممتازا مرتفع النفس كبير القلب خليقا بالاكبار . وهى تجد هذه الخصال كلها فى الفيلسوف ولا تكره أن تتخذه شريكا فى تحقيق هذا الأمل وخلق هذه الطفل . ولكنها لا تريد أن تخدعه ولا أن تغره فهى لا تحبه بالمعنى المألوف لهذه الكلمة وحياتها ليست بالشىء النفيس

الذي يعرض الناس على الاشتراك فيه . فهي بائسة تحتاج الى من يعزيها وهي فقيرة تحتاج إلى من يعولها . وهي لا تحمل لشريكها الامودة صادقة وإخلاصا لاحد له .

ويقرأ الفيلسوف هذا الكتاب فيجن جنونه وتدور به الأرض ثم تهدأ نفسه . وتشرق في وجهه الدنيا وتبتسم له الأيام وهل كان يطمع في أن تقبل كلوتيلد منه مثل هذا وترضى أن تكون له خليلة وتقاسمه الحياة وتشاركه في خلق إنسان؟ وهو قابل اذا وهو راضى وهو سعيد وهو واثق بأن هذه خطوة ستتبعها خطوات وهو يكتب اليها ويمضى كتابه على هذا النحو : زوجك المخلص أجوست كونت .

وتزوره ذات يوم زيارة المستقبلة المستعدة للوفاء بالوعد وإنفاذ هذه الشركة ، فيلقاها فرحاً مبتهجا ثم يجلسها ويجثو بين يديها ويقدم اليها صلاة فلسفية حارة . ولكنه عالم لاحظ له من براعة الأدباء ولا من براعة الرجال الذين تعودوا عشرة النساء والتلطف لقلوبهن ، فصلاته فلسفية وحديثه بعد ذلك على كله وحركاته حين يضطرب في غرفته منظمة قد قدرت تقديراً . فهو لايرفع شيئاً إلا بحساب ولا يضع شيئاً إلا على نظام ولا يأتى حركة إلا إذا كانت لها علة ظاهرة وتأويل معقول وهو يتحدث عن دخله وعما سيحتاجان اليه من نفقه وعن ترتيب البيت وعن النظام المادى للحياة . وهو على هذا كله دميم لاجمال في شكله ولا روعة ، قصير متقدم البطن مضطرب الوجه . فاين يقع هذا المنظر ؟ وأين يقع هذا الحديث ؟ وأين تقع هذه الحركات المنظمة من قلب امرأة لم تتجاوز الثلاثين بعد ؟ ما أسرع ماضاقت بهذه الشركة ورغبت عنها ، وما أسرع ماضحكت من نفسها في نفسها ، وما أسرع ما استيقنت انها كانت تحاول أمراً لاقبل لها به ولا قدرة لها عليه . وما أسرع مانهضت وهى تقول : لقد تقدم الوقت دعني أكتب اليك. وما أسرع ماخرجت من الباب وهبطت السلم وبلغت الشارع ومضت . والفيلسوف ينظر اليها من النافذة . فاذا هى تسرع أمامها لاتلتفت ولا تلوى على شيء وتكتب الى الفيلسوف بعد ذلك معتذرة متعللة قائلة إنها قد تعجلت الوعد وتبين لها أنها في حاجة إلى التفكير الطويل وأن الخير في أن تمهل نفسها لترى .

فلا يكاد الكتاب يصل إلى الفيلسوف حتى يحس أنه قد أذاها بحديثه فيكتب اليها متلطفاً ملحاً . وتمضى هى فى إبائها . ويشتد هو فى الحاحه حتى اذا أثقل عليها اجابته فى شيء من الشدة والصرامة أنها لاتستطيع أن تبيع نفسها ولا أن تساوم فيها فان كان يقنعك ما أعرضه عليك من المودة الخالصة الطاهرة فذاك ولك أن تلقاني في بيت أسرتي كدأبك من قبل ولا بد لي من ستة أشهر أفكر فيها وأروى وإلا فاني عائدة إلى ما كنت فيه من وحده وعزلة . هنا يفيق الفيلسوف من ذلك السكر الذى كان قد غمره وملأ عليه قلبه وعقله . ويعود إلى حاله الأولى ليس شديد الرجاء ولكنه ليس يائسا بل هو بعيد كل البعد من اليأس واثق بأن العاقبة له وبأن الفوز لن يخطئه مهما يكن من شيء ، سيصبر اذا وسيستأنف حياته الأولى ويلقى الفتاة فى بيت أسرتها مرتين فى الأسبوع .

وكلاهما سيء الحال ضيق ذات اليد . اما هي فتبحث عن عمل لتعيش منه او لترفه به بعض الشيء حياتها الضيقة الخشنة . وهي لا تتردد في أن تشغل مكان السكرتير في مكتب من المكاتب او عند رجل ذى مال ان ظفرت به . ولكنها لا لا تظفر بشيء ولا باحد إلا فيلسوفها الذى قد وثقت به واطمأنت اليه . فهى لا تخفى عليه من أمرها شيئا وهو يعدها بالمعونة ويعرض عليها ان يقرضها ما تحتاج اليه . بل يؤكد لها أن كل ما يملك من المال ملك خالص لها تستطيع أن تأمر فيه بما تشاء . نعم ولكنه هو لا يملك شيئا أو لا يكاد يملك شيئا ، اعماله شاقة ونفقاته ثقال والمستقبل أمامه مظلم . هو يلقى دروساً رياضية فى بعض المدارس الحرة ولكن صاحب المدرسة يريد أن يلغى هذه الدروس رغبة فى الاقتصاد . وهو يكسب شيئا من مدرسة الهندسة ولكنه فى حاجة الى أضعاف هذا الذى يكسبه . وهو يلح على تلاميذه فى انجلترا أن يرتبوا له رزقا معلوما ، ولكن التلاميذ لا يؤمنون لأستاذهم بهذا الحق وهو مضطر الى أن يرزق امرأته ثلاثة آلاف فرنك فى كل عام ، ولابد له من أن ينقص هذا الرزق وأن يختزل منه ثلثه . وهو على هذا كله يعمل ، وهو على هذا كله يحب وهو حريص على ألا يقصر فى ذات فلسفته ولا فى ذات عشيقته . وعشيقته

أيضاً تعمل لخدمة الأدب أن أعجزها ان تعمل لكسب المال. لقد نجحت قصتها الأولى بعض الشيء. فالماذا لا تكتب قصة أخرى وقد بدأت كتابة هذه القصة وأخذت نفسها لها موضوعاً مع شيء من الرمز والايماء. وأخذت كلما كتبت شيئاً أرسلته إلى الفيلسوف، فيقرأ ويعجب ويهيم. ويفرط ويسرف في التقريظ.

ويستأنف زياراته للاسرة محتملاً ما يرى من الأعراض يقابله عنه في كثير من الأحيان. حتى اذا كتب أخو الفتاة رسالة في الرياضة وعرضها على أستاذه ونظر الأستاذ فيها وأطال النظر لم تعجبه. فيضطر إلى أن يعلن رأيه الى تلميذ في غير تردد وإلى أن يتحدث الى الفتاة بأن حبه لها وحرصه على مودة أخيها لن يمنعاه من أن يعلن رأيه في هذا الكتاب الذي لا خطر له. هنالك يزداد سخط التلميذ على أستاذه وهذا هو الذي يدور حول أخته ويشرب القهوة في البيت مرتين في كل أسبوع، ثم لا يشجع تلاميذه ولا يعترف لهم بما يوفقون اليه من فضل.

ويشتد إنكار الأسرة على الفتاة وتثبت هي لانكارهم، فتجادلهم في أستاذها وتزودهم عنه، وتخرج من عندهم مكدودة متعبة وتأوي إلى بيتها وقد فقدت أو كادت تفقد الشجاعة والنشاط. فتفكر في الفيلسوف، وفي أنه الرجل الوحيد الذي يؤثرها بالحب، ويصفيها المودة والعطف، فتنازعها نفسها اليه. ولكن نفوراً قوياً يمسكها أن تندفع في هذا الحب. فتكتفي بالشكوى. وتقبل من الفيلسوف عطفه وحنانه، ومعونته المالية أيضاً. وكانت أعراض الضعف قد ظهرت عليها، فأخذت تحس فتوراً واعتلالاً. وأخذت تقاوم سعالاً متكرراً مضنياً ولم تقدر إلا أن ماتحسه عرض من أعراض هذا الجهد الذي تلقاه. فصبرت واحتملت ووجدت في كتابة قصتها، ووجدت أيضاً في الأنس إلى الأستاذ وأذنت له أن يزورها في بيتها الخاص. فأحيت أمله، وبالغت في أحياء هذا الأمل حين أهدت إلى الأستاذ باقة من الزهر الصناعي صنعتها بيدها، وأرسلت معها أبياتاً من الشعر لا قيمة لها، ولكن الفيلسوف رآها آية من آيات البيان.

وزارها الفيلسوف ذات يوم فاذا هي متعبة تلقى من الآلام جهداً شديداً فتحدث اليها وأطال الحديث واطمأنت هي اليه إطمئناناً شديداً، فلما نهض لينصرف اختلس قبلة من فمها، ولكنه لم يكد يبلغ بيته حتى كتب اليها كتاباً مشهوراً يعتذر فيه من هذه القبلة، لأنه لم يكن يثق حين اختلسها بأن نفسه كان نقيا طيب النشر ووردت عليه في هذه السذاجة البديعة « لا بأس عليك فأنا التي منحتك قبلة صديقة مخلصة ».

ويشتد المرض والفقر بالفتاة. ويشتد الهيام والبؤس بالفيلسوف، وتزول بينهما الكلفة. وتكثر الزيارة عندها وعنده، ويعرض عليها خادمه لتعينها على الحياة. فتأبى. وتقضي الشتاء وحيدة عاملة لا يسليها عما تجد الا زيارات الفيلسوف لها وعطفه عليها. وقد عرضها على الطبيب فقدر لها مرضاً أخذ يعالجه وهو بعيد كل البعد عما كانت تجد. واشترك الفيلسوف في الأوبرا على نفقه ليسلي صاحبته بالموسيقى من حين الى حين. ولكنه لم ينس الحب ولم يفكر في الأعراض عنه فهو مازال يلح على الفتاة ويتقاضاها هذه الصلة المادية التي تتوج ما بينهما من ائتلاف العقل والقلب وهي تأبى حتى إذا أثقل عليها فأسرف. كتبت اليه تدعن لما يريد. وهي تقول: إنك تطالب بأجر ما تبذل لي من ود ومعونة فلن أماطل في تأدية هذا الأجر. هنالك استحى الفيلسوف واستكبر فرفض هذا التسليم وأبى إلا صلة مصدرها الحب والرغبة.

وزارته ذات يوم وهي مكدودة قد أجهدها المرض. واشتدت بها الحمة فلما انتهت الى البيت استلقت على وسادة ونظر اليها هو وان في عينه لحبا لا حد له، وشهوة لا حد لها. وإذا هو يرى عينيها الزائغتين من الألم وخديها اللذين تورِّدهما الحمة فلا يرى إلا جمالاً مغرياً وحسناً فاتناً. وهي مستلقية أمامه لا حول لها ولا طول. وهو قادر عليها: ولكنه ليس قادراً على نفسه. فهو يشتهي الى حد الهيام ولكن عقله ووقاره يأبيان عليه هذا التعصب. فتتحول هذه الشهوة الحادة العنيفة الى حب ووقور، فيه شيء كثير من جلال الدين. والمرض والبؤس يلحان على الفتاة. والحب والفقر يلحان على الفيلسوف واذا هي قد لزمت غرفتها، ولزمها خادم الفيلسوف. وجاء

الطبيب لم يشك فى أنها مسلولة مشرفة على الموت . وكثر تردد أمها عليها وكثر تردد الفيلسوف أيضاً . وكانت بين الأم والفيلسوف حول هذا الجسم الناحل وهذه النفس التى تتأهب لمفارقة الحياة ، خصومات مؤلمة ولكنها لا تخلو من فكاهة . فأما الأم فكانت أسيرة الأوضاع الاجتماعية ، أسيرة هذا الحب الذى يعطف المرأة على ابنتها . وأما الفيلسوف فكان أسير هذا الحب القلق ، ولم يكن يتردد فى أن يعلن أنه وحده صاحب الأمر فى هذا البيت لانه الزوج الخالد للفتاة.

ولم لا ؟ لقد كان ينهض بكل ما تحتاج اليه ، ويعرف من تمريضها ما ظهر وما خفى . لقد كتبت اليه مرة تقول : ما أشد حاجتك الى الرحمة أيها العاشق التعس ، لم تظفر من خليلتك إلا بشر ما يظفر به الازواج . وكان مؤلماً جداً ، وباعثاً للابتسام أحياناً أن يرى الفيلسوف جاثياً أمام السرير وهو يصلى الى الفتاة فيدعوها أخته وزوجه وابنته . ويؤكد لها ويقسم ليعصمنها من الموت ولأن عبثت الطبيعة بجسمها فليضمنن هو لنفسها الخلود . ولم لا ؟ ألست أرق امرأة عرفتها الانسانية . لقد لقيت أرق عقل عرفته الانسانية ، فلن يكون للفناء عليك ولا على سلطان .

وساءت حال الفتاة ودعى القسيس ليهيأها لاستقبال الموت فلم تمانع هى ولم يمانع هو . وأقبل القسيس فأدى عمله والفيلسوف يراه ويسمع له ساخطاً حتى اذا أنصرف أقبل فانكر هذه العادة الدينية التى تنتزع المريض انتزاعاً من الحياة لتدفعه بين نواعى الموت .

أقبل عذب الصوت رضى النفس حنون القلب فجثا الى السرير وحنى على الفتاة وأخذ يحدثها أحاديث عذبة كلها أمل وكلها رحمة . ثم انصرف وعاد فاذا الأسرة كلها مجتمعة واذا هم يأبون عليه أن يصل الى المريضة . فتثور ثائرته ويخرج عن طوره ويأبى أن ينصرف ويهم بأخراجهم جميعاً لأن المريضة زوجه وخليلته وهى له وحده دونهم ، بذلك اعترفت له وعلى ذلك أقسمت له فيجب أن يخلى بينه وبينها . فأما الأم فتنكر وتبكى وتستخذى . وأما الأخ فيقبل على أستاذه منذرا . وأما الأب الشيخ فيقبل هادئاً وقوراً يطلب الى الفيلسوف أن يدع المريضة لأهلها .

فانظر الى الفيلسوف وقد جثى أمام الشيخ ضارعاً مستعطفاً حتى رق له الشيخ فقال إنصرف الآن ولك علينا أن ندعوك اذا استيئسنا منها . خرج الفيلسوف فلزم داره فلما كان من غد جاءه الرسول فأقبل مسرعاً حتى انتهى الى البيت . فلما رأته الأسرة أنفرجت له وخلت بينه وبين غرفة الفتاة . فدخل وأغلق الباب من دونه وأرتجه فأحكم أرتاجه . وأقام ساعات طوالا لايخرج ولا يدخل عليه أحد ويستطيع الخيال أن يذهب كل مذهب فى تصور ماقال الفيلسوف للفتاة المحتضرة أو ماعمل أمام هذا الحب العظيم الذى كان الموت يغلبه عليه قليلا قليلا . فلما تقدم النهار ودنى المساء فتح الباب وخرج صامتا لا يلوى على شئ . فاقام فى داره ولم يشهد الجنازة ولم يشيعها الى القبر . وماذا يعنيه من الجنازة ؟ لقد حاول أن يصل إلى هذا الجسم فلم يجد اليه سبيلا وحاول أن يصل إلى هذه النفس فلم تقاومه ولم تمتنع عليه ، وإنما اسرعت اليه فاقامت فى عقله وقلبه . لم تمت كلوتيلد وانما أودعته خير ما فيها فهى اذا فى قلبه ، هى اذا تقاسمه حياته الدائلة حتى اذا انقضت هذه الحياة الموقوتة امتزجت بنفسه فكانت منها نفس واحدة خالدة . عكف الفيلسوف فى داره على هذه الصورة يعبدها ويهيم بها وما هى إلا أن استحال حبه لكلوتيلد دينا وضعت له التقاليد وألوان الصلوات والعبادات . وأغرب من هذا كله أن الحياة الظاهرة للفيلسوف لم تتغير . فدروسه كانت تلقى فى نظام ومجلاته كانت تقرأ فى نظام ورسائله كانت تقرأ ويرد عليها فى نظام أيضا .

ما أعجب أمر الانسان تراه ساذجا يسيرا وان شخصه لشديد التعقيد .

انظر مجلة العالمين التى صدرت فى ١٥ فبراير

الكتب

ضاق نطاق هذا العدد عن نشر باب الكتب وقد اجتمع لدينا طائفة كبيرة من المؤلفات الحديثة القيمة تستحق النظر فيها والاشادة بها والتعليق عليها . فنعتذر إلى حضرات المؤلفين والقراء من تأجيل ذلك إلى العدد المقبل .

العدد الأول من الرسالة

بق لدينا مقدار قليل من الطبعة الثانية لهذا العدد . وهو يطلب رأساً من الادارة .

القصة المصرية

نشرنا فى هذا العدد جزءاً كبيراً من هذا البحث القيم وسننشر تتمته فى العدد المقبل .

فولتير المؤرخ

للأستاذ زكى نجيب محمود

لبث التاريخ قروناً يتلوها قرون ، وهو لا يحسب للشعوب حساباً ، ولا يعنى بحياة الانسان قليلاً ولا كثيراً ، إنما ملئت سطوره وأفعمت صفحاته بذكر الملوك والأمراء . فكان تاريخ الأمة هو تاريخ ملوكها . أما سائر الطبقات ، التى هى فى الواقع لحمة الحياة وسداها ، هى الانسانية بأسرها ، هى مبعث القوى والنشاط جميعاً ، فكانت لا تظفر من المؤرخ بسطر واحد فضلا عن صفحة أو كتاب

بقيت الحال كذلك ما بقيت الشعوب بعيدة عن دوائر السيطرة والحكم ، ثم ما كادت تنهض أوروبا نهضة الأحياء ، ويستيقظ الناس من ذلك السبات العميق ، وتبدأ الديمقراطية الصحيحة تنشر ألويتها ، وتجد سبيلها إلى صميم القلوب ، حتى انقلب ذلك الوضع الخاطئ ، واتخذ شكله المستقيم . وأصبحت الشعوب وحياتها عند التاريخ كل شىء .

ولكل انقلاب رسوله الأمين ، ورسول ذلك الانقلاب فى كتابة التاريخ هو فولتير . الذى يمثل فى شخصه حلقة الإتصال بين العهدين ، وجسر التطور بين المنهجين .

كان فولتير كثير القراءة والاطلاع إلى حد النهم ، وكلما تقدمت به السن ازداد فى ذلك امعاناً وادماناً . حتى احتوى فى نفسه شطراً عظيما من عصارات الأذهان البشرية التى سبقته إلى الوجود . فلم يسعه أمام ذلك الانتاج العقلى الغزير ، الا أن يكبر العقل الانسانى الى درجة التقديس . وقد أوحى اليه ذلك الاكبار أن يجرد قلمه للارتفاع بمكانته الى أعلى عليين . فأخذت تلك البراعة العبقرية تدبج الفصول التى تظهر فيها عظمة العقل ظهورا واضحاً لايخطئه النظر . ثم تطورت عنده تلك النزعة فولدت فى نفسه عنصراً جديداً ، هو حب الانسانية والفناء من أجلها . فأخذ يسمو بها بمقدار ما يصب غضبه ونقمته على أيدى الجهالة السوداء التى اعترضت سبيل تقدمها ، وكانت عثرات فى طريقها . هذا التقديس للعقل وللانسانية ، وهذا السخط الذى أراد أن يسحق به عوامل الجمود على اختلاف ألوانها ، كان أول عنصر جديد أدخله فولتير فى كتابة التاريخ .

ونحن اذا تتبعنا مؤلفاته التاريخية ، التى كتبها فى مراحل عمره المختلفة ، أدركنا على الفور تدرج تلك النزعة فى نفسه تدرجاً أدى بها الى تلك الخاتمة التى ذكرنا .

كانت باكورة مؤلفاته التاريخية « حياة شارل الثانى عشر » الذى كتبه ولم يزل يرسف فى أغلال التقاليد ، التى أملت عليه مثله الأعلى ، فأخرج كتابه للناس آية فى تمجيد شارل ، وأكليلا من الزهر يتوج به هامة ذلك الملك ، الذى سما به الى مرتبة رفيعة لايدانيها من البشر الا الأقلون . وكل عبقريته أنه نثر الدماء وبعثر الأشلاء !! وأنه خاض فى أوروبا من الشمال الى الجنوب ، فاحتواها فى قبضته من تركيا الى السويد !! ولكن نفس فولتير لم تضطرب فيها عاطفة واحدة نحو ذلك الشعب الذى نسج حول مليكه تلك العظمة الحربية بخيوط من أرواحه وماملكت أيديه ، كلا ولم يحسب حساباً لتلك الشعوب التى داسها شارل تحت أقدامه ، وأذل أعناقها لتخلى أمامه الطريق !

يسجل ذلك الكتاب أولى مراحل فولتير الفكرية ، ولكنه لم يكد يفرغ من كتابته ويذيعه فى الناس ، حتى اتجه بأنظاره الى دراسة العلوم الطبيعية والرياضية : الى دراسة ما اكتشفه نيوتن وما ارتآه لوك . وهنا آمن بعظمة العقل الانسانى ايمانا لاتزعزعه الريب والشكوك ، وما هى الا أن عاد الى ميدان التاريخ يجول فيه ويصول ، ويبحثه فى ضوء ادراكه الجديد وله المأخوذ بجلال الانسان . فأخذ يعالجه بأسلوب لم يعهده التاريخ من قبل ، بعيد كل البعد عن الطريق التى انتهجها فى كتابه عن شارل الثانى عشر .

بهذه النزعة الناشئة . وفى هذا الضوء الجديد . نشر مؤلفه المشهور عن لويس الرابع عشر ، الذى ان قرأته فلن تجاوز ورقات قليلة ، حتى تلمس هذا الأسلوب التاريخى الجديد ، وتدرك المدى البعيد الذى انتقلت اليه عقليته . فى كتابة التاريخ ، فبينما هو يسرد عليك فى كتابه الأول قصة واحد من الملوك ، تراه يصور فى كتابه الثانى عصرا بكل ما احتوى من ضروب الحياة . بل تستطيع ألا تجشم نفسك مؤونة القراءة لتتبين هذا الفرق بين الكتابين ، ويكفى أن تلقى نظرة عجلى على عنوانيهما لتدرك ماتناول وجهة نظره من تطور وانقلاب ؛ فعنوان الكتاب الأول « تاريخ شارل الثانى عشر » وعنوان الثانى « عصر لويس الرابع عشر » . فى كتاب شارل أخذ يسرد فى تفصيل وتطويل ماطرأ على حياة ذلك الملك من أحداث ، وما كان يطبع شخصيته من ضروب المميزات والفضائل ، أما فى هذا الكتاب الأخير ، فقد تتبع الشعب فى نزعاته وميوله وحركاته ، وقد ذكر فى مقـــدمته أنه « لن يصف حياة رجل واحد ، بل سيعنى بأحوال الشعب جميعاً » فبينما تراه يلم ألماما

سريعا بأخبار الحروب ، تراه يذكر في إطناب نواحي الحياة الأخرى التي لم تحظ قبل فولتير بصفحة واحدة من صفحات التاريخ فقد عقد فصلا للتجارة والحكومة الداخلية ، وآخر للحالة المالية ، وثالثا لتاريخ العلوم ، كما اختص الفنون الجميلة بفصول ثلاث . وعلى الرغم من أنه كان يعتقد أن النزاع الديني لا يستحق من العناية إلا القليل ، إلا أنه أفسح لأخبار الكنيسة في عصر لويس الرابع عشر من كتابه مكانا واسعا . لأنه لم يشك في أنها لعبت دورا خطيرا في شئون الحياة ، التي أراد أن يصورها في مؤلفه هذا تصويرا دقيقا .

ولكنا يجب أن نلاحظ أن هذا الكتاب ، وإن يكن خطوة واسعة وانتقالا خطيرا في دراسة التاريخ ، إلا أنه لم يخل من شوائب الماضي إذ أطال فولتير - في غير ما موجب للتطويل - في تفصيل حياة لويس الرابع عشر نفسه ، وفيما كان يتقلب فيه من ضروب اللهو والعبث والمجون . ثم حاول بعد ذلك أن يقيم الدليل على سمو مكانته وعظمة مجده ، وأن يدفع حراب النقد التي كانت تصوب إلى اسمه من كل حدب وصوب .

كان ذلك الكتاب إذن وصلة التطور بين عهدين ، لأنه تأريخ القديم من ناحية ، وتعلق بأسبابه من ناحية أخرى ، ثم ما كادت تطوى سنوات أربع ، حتى طلع على العالم بسفره الجليل في أخلاق الشعوب ، الذي يعتبر بحق أسمى ما أنتجه العقل الإنساني في القرن الثامن عشر .

لم يعن فولتير في هذا الكتاب كثيرا بدسائس البلاط ، وتتابع الوزارات ، وما أصاب الملوك من سعود ونحوس . ولكنه حاول أن يترسم آثار الإنسانية في سيرها وتقدمها مرحلة بعد مرحلة . فهو يقول فيه « أريد أن أكتب تاريخا للمجتمع الإنساني ، غير معني بما نشب فيه من حروب ، وأن أبين في جلاء ووضوح كيف كان يعيش الأفراد في حياتهم العائلية الخاصة ، وما هي الفنون المختلفة التي كانوا يعالجونها ، ذلك لأن الموضوع الذي أنا بصدده . هو تاريخ العقل البشري . فلن أسرد الحوادث التافهة الحقيرة ، ولن أعنى بأخبار الأمراء والعظماء ، وما قام بينهم وبين ملوك فرنسا من قتال وعراك . ولكني سأدرس المراحل التي اجتازها الإنسان حتى انتقل من الهمجية إلى المدنية » .

وهكذا ضرب فولتير مثلا أعلى للتاريخ كيف يكون . فاهتدى بهديه المؤرخون من بعده . وأخذوا يدرسون ما هو جدير بالدرس ويسقطون من حسابهم تلك التفصيلات الجافة المملة التي لا تتصل بالحياة إلا بسبب واه ضئيل ، والتي غصت بها مجلدات التاريخ من قبل .

لم يكن فولتير في تلك الروح الجديدة إلا مرآة صافية ينعكس فيها ما تضطرب به نفوس القوم في القرن الثامن عشر ، لذلك لم يكن هو الكاتب الوحيد الذي اختط لنفسه هذا النهج ، بل عاصره منتسكيو وبيرجوا ، اللذان نسجا على هذا المنوال في كتابة التاريخ .

وهكذا بدأ المؤرخون يحولون موضوع الدراسة من أشخاص الملوك والأمراء ، إلى حياة الشعوب وما يرتبط بها من مصالح . فأخذوا ينقضون آراء الطبقة البالية ويبذرون في النفوس بذور القلق والاضطراب . ثم يحقرون تلك الشخصيات ، التي كانت تملأ عظمتها النفوس من قبل ، والتي كانت أقرب إلى الآلهة منها إلى البشر .

وبذلك انقلب التاريخ معولا لهدم الملكية والأرستقراطية بعد أن كان أداة قوية للدعاية لسلطانهم . وأصبح قيثارة تنبعث منها نغمات الديمقراطية ، وتقديس الإنسان ، وتمجيد الأيدي العاملة ؛ ثم أخذت تلك الألحان الجديدة تدوي أصداؤها في جنبات أوروبا عامة وفرنسا خاصة ، حتى انتهت بالثورة الكبرى ، التي ثلت العروش ودكت قوائم الأرستقراطية دكا . ولعل ما حدا بفولتير إلى انتهاج هذا الأسلوب في كتابة التاريخ ، هو ميله إلى التعميم في دراسته للأشياء . فهو لا يطمئن للبحث في الجزئيات . إلا إذا كان ذلك على سبيل الاستشهاد وضرب الأمثلة التي تؤيد قاعدة عامة ومبدأ شاملا . لهذا تراه قد أقام التاريخ على أساس المراحل التي اجتازتها الإنسانية عامة في تطورها ؛ أما الملوك ومن إليهم فهم بمثابة الجزئيات من تلك الكتلة الإنسانية ؛ فلا يجوز دراستها لذاتها . ولم تقتصر تلك الروح التعميمية على كتابة التاريخ بل اشتملت رواياته أيضا . فهو لم يحاول أن يصور فيها عواطف أفراد وأخلاق آحاد . إنما قصد إلى إبراز روح العصر الذي وقعت حوادث الرواية فيه .

كان من النتائج الطبيعية لهذه السبل التي سلكها فولتير في كتابة التاريخ بناء على إكبار العقل الإنساني ، وإجلال صنوف الشعب ، التي هي نسيج الحياة الاجتماعية ومادتها ، أنه كان يزهو بعاصره إذا قاسه إلى الماضي ، كما كان قوي الإيمان ، مزدهر الأمل في مستقبل الإنسانية ، ما دامت جادة في طريقها لا تلوي على شيء . أو على الأصح لا يلويها عن تلك الجادة المستقيمة شيء . لذلك كان يضيق صدرا بمن عاصره من الكتاب ، الذين كانوا إذا أرسلوا بصرهم إلى المستقبل ، ارتد حسيرا إليهم ، وإذا أجالوا الطرف في حاضرهم ، تملكهم اليأس والقنوط : فكانوا يولون وجوههم إلى الوراء ، يستعيدون صورة الماضي ، التي كان يخيل إليهم أنها أقرب إلى الخير والكمال والشعوب إذا دب فيها دبيب العجز والقعود ، التمست في الماضي مثلها الأعلى . أما إذا كانت فتية قوية ، فهي تنظر

الى المستقبل يحدوها الأمل والرجاء . وليسمح لى القراء أن استطرد قليلا فأقول انى لا أطمئن الى هذه اللوعة التى يتردد أنينها الحين بعد الحين ، أسفا وحسرة على و السلف الصالح » الذين غيبهم التاريخ فى جوفه العميق ، سواء أكان هذا السلف من المصريين القدماء أم من العرب . أنما يجب أن نذكر اولئك وهؤلاء كما يذكر الشاب القوى طفولته الضعيفه العاثرة ، لا كما يذكر الشيخ المتهدم شبابه الفتى الضائع .

أعود فأقول ان فولتير قد ضاق صدرا بتلك الطائفة من الكتاب ، التى كانت تنشد مثلها الأعلى فى الحياة الماضية ، فلم يتردد فى أن يذيع فى الناس صورة ذلك الماضى المظلم الشرم ، وأن يطلع أمته على حقيقة العصور الوسطى التى كانت تتخبط فى ديجور الجهل والفوضى ، حيث كانت أشنع الجرائم ترتكب بغير قصاص ، وأشراف الاقطاع يبطشون بالناس بطش العزيز المقتدر بغير حساب ؛ وبذلك عرف فولتير كيف يهدم تلك الفئة الضالة المضللة ، وعرف كيف يمحو هذا الأعجاب السخيف المصطنع بالماضى البالى العتيق ، كما عرف كيف يبسط للناس فى الأمل الوارف الظلال ؛ وكان المعول الذى اتخذه لتحطيم ذلك جميعا ، هو سخره اللاذع وتهكمه القارص ، بهؤلاء الذين يعيشون فى الحاضر بأجسادهم ، وفى الماضى بنفوسهم وعقولهم (فليسمع الجامدون !!) وقد أخذ عليه بعض النقاد ، أنه انما لجأ الى ذلك السخر عندما أعوزه المنطق الذى يدعم به ما يقول ! فأين أذن من هو أقوى من فولتير حجة وأسد منطقا ؟! ولسنا نشك فى أن من المنطق ألا يناقش تلك الطائفة بالمنطق ! والا لحدثنى بربك كيف تجد الحجة العقلية سبيلا الى نفوس هؤلاء ، الذين نبذوا الجديد لأنه جديد ، ومجدوا القديم لأنه قديم ، مع أن العكس أولى وأقوم ، لأنه أقرب الى سنة الحياة ؟!

لله در فولتير فى تلك السخرية التى صادفت أهلها وأصابت مرماها ، فقد استطاع أن يسحق رجال الدين سحقا ، وأن يسقط أعلام الفكر فى عصره ، الذين أرادوا أن يعودوا بالانسانية أدراجها الى الماضى ، وعرف كيف يزلزل عروش هؤلاء وأولئك - وكانت مكينة حينئذ - زلزالا عنيفا ، بأن احتقرهم وازدرائهم ، تارة بالأهمال والحذف ، وطورا بتصويرهم فى كتاباته فى صور تبعث القراء على الضحك

نعم أستطاع فولتير أن يقوض سلطان الكنيسة المخيف ، وأن يهزأ بالدراسات الكلاسيكية ، التى كانت موضع الاعجاب والتقدير حينا طويلا من الدهر ، ولكنه لم يكن هداما وكفى ، بل أقام على تلك الانقاض بناء قويا من الأمل فى المستقبل بعد اليأس من الاصلاح ، ومن ألعناية بالشعوب دون الملوك ، بعد أن كانت تلك الشعوب فى زوايا الأهمال والنسيان وقد استعان على ذلك جميعا بقوة المنطق تارة ، وبالسخرية اللاذعة طورا ، حتى كتب له النجاح والتوفيق .

هكذا كان فولتير من رسل الديمقراطية فى الطليعة ، ومن أبطال الثورة الفرنسية فى المقدمة . لأنه حطم ذلك التقديس الالهى الذى كان يحيط بالملوك ورجال الدين ، ثم رفع الشعب حتى تبوأ تلك المكانة السامية ، فلوح له بمستقبل مزدهر هانىء سعيد ، فلعبت تلك الأمانى الحلوة بأفئدة القوم ، وضاقوا بحياتهم صدرا ، وبدأ القلق يساور النفوس ، تعجلا لذلك المستقبل الموعود ، فأخذ الشعب يتحفز ويتوثب ، الى أن هب فى الثورة الكبرى ، وحطم ما كان يرسف فيه من أصفاد وأغلال .

لم يعد لويس السادس عشر الحقيقة حين قال ، وقد وقعت عينه فى السجن على كتب فولتير وروسو : « لقد أنقض هذان الرجلان ظهر فرنسا » ويقصد بذلك أسرة البوربون .

ذلك هو فولتير ، الذى لم يكن واحداً فى عداد الأفراد ، بل احتوى فى شخصه عصراً بكل ما فيه من عقل وروح ، حتى قال عنه فكتور هوجو : « اذا ذكرت فولتير ، فقد ذكرت القرن الثامن عشر » .

وهذه هى آثار ما كتبه من أدب وتاريخ ، واضحة فى النعرة الديمقراطية التى تجتوى الأرض من أقصاها الى أقصاها ، فحق له أن يقول : « ان الكتب تحكم العالم » .

زكى نجيب محمود

مركز الكون

للأستاذ عبد الحميد سماحه
مفتش مرصد حلوان

فى يوم ٢٢ يونيه سنة ١٦٣٣ وقف العالم الايطالى الكبير جاليليو جاليلى أمام المحكمة المؤلفة بأمر من قداسة البابا وقتئذ، لسماع الحكم عليه بشأن عقيدته العلمية وصدر الحكم المشهور فكان لطمة جريئة على وجه الحقيقة العلمية، ليس لها مثيل فى التاريخ.

ثبت لدى المحكمة أن جاليليو اعتقد اعتقاداً فاسداً ومنافياً للتعاليم السماوية، بأن الشمس هى مركز الكون وانها لا تتحرك من الشرق الى الغرب، وانما الأرض هى التى تتحرك، وانها ليست مركز الكون، فحكمت عليه بأن يرتد عن عقيدته هذه وأن يعلن لعنته عليها، واحتقاره لها. ثم بالغت المحكمة فى قسوتها، فقضت على جاليليو بالسجن: لولا أن تداركته العناية الالهية، فقد أشفق البابا على الشيخ العظيم، وألغى فى اليوم التالى الجزء الأخير من الحكم، ولكنه قضى عليه بأن يلزم عقر داره فى الريف، وألا يتصل بأحد إلا باذن خاص.

هكذا جرحت كرامة العلم فى شخص واحد من أعز أبنائه. ولم يكن جاليليو فى الحقيقة هو صاحب هذه النظرية، فقد زعم بدوو أن الأرض والقمر والكواكب السيارة حول نار مركزية فيلالوس حوالى القرن الخامس قبل الميلاد. ومن بعده ارستاركس العظيم أحد علماء مدرسة الاسكندرية فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد: فقد قال بأن الشمس والنجوم كلها ثابتة لا تتحرك، وأن الأولى هى مركز الكون: وأن الأرض تتحرك حول محورها مرة كل أربعة وعشرين ساعة، وحول الشمس مرة كل سنة، فيتسبب عن حركتها الأولى ظاهرة الليل والنهار، وعن حركتها الثانية ظاهرة الفصول ولكن أرسطو اعترض على ذلك اعتراضاً عظيما فقال: لو أن الأرض تدور حول الشمس لتسبب عن ذلك تغير ظاهرى فى مواقع النجوم؛ ولما كانت الأرصاد الفلكية لا تحقق هذه النتيجة، زعم أرسطو بأن الأرض ثابتة لا تتحرك، وأنها مركز الكون. وعلى هذا الأساس وضع علماء الفلك التفسيرات المختلفة لحركة الكواكب السيارة فى السماء. ومع أن الأرصاد لم تؤيد تفسيراتهم المعقدة لم يجرؤ واحد منهم على الانداد عن تعاليم أرسطو الفيلسوف العظيم دهراً طويلا؛ حتى كان منتصف القرن السادس عشر، وفيه نشر كتاب De Revolutionibus Orbium Celestium للعالم البولندى كبرنكس وفيه يفسر المؤلف حركة الكواكب السيارة على أساس نظرية أرستاركس القديمة تفسيراً سهلا، تحقق بواسطة الأرصاد. فيقول بأن الأرض وجميع الكواكب السيارة تدور حول الشمس. ولكن ما كاد ينشر الكتاب حتى قامت قيامة الكنيسة والجامعات على السواء، وأوصدوا أبوابهم من دون نظرية كبرنكس الجديدة، ووضعوا أصابعهم فى آذانهم إذ لم يرق فى نظرهم أن يكون مهد الانسانية ومهبط روح الله عيسى عليه السلام على مثل ما يدعيه كبرنكس فى نظريته

ثم كانت حرب طاحنة بين الحقيقة والوهم، كان النصر فيه حليف الحقيقة؛ لأن جاليليو كان قد أتى بالبراهين العملية على صحة نظرية كبرنكس: فرأى بمنظاره الجديد كيف أن الزهرة تتشكل بأشكال مثل أشكال القمر وبرهن على أن ذلك لا يكون إلا نتيجة لدورانها حول الشمس. ثم جاءت البراهين تلو البراهين على صحة نظرية كبرنكس حتى ثبتت وأصبحت مما لا يقبل الشك. وتعتبر هذه الحقيقة الحجر الأساسى فى علم الفلك الحديث، بل ربما كانت هى أهم الحقائق العلمية على

وجه الاطلاق .

بعد ذلك تقدمت الأبحاث العلمية فى هذا الاتجاه فوجد أن الشمس بدورها ليست إلا واحدة من مجموعة شموس ، أو نجوم مثلها يقدر عددها بمائة ألف مليون وهذه المجموعة تسمى المجموعة المجرية ، وهى المحدودة فى السماء بذلك السديم العظيم المعروف (بسكة التبانة) وهى تشبه فى شكلها بعجلة السيارة ، وتدور حول محور عمودى على سطحها مار بالمركز ، وان الشمس مع ذلك ليست هى مركز المجموعة ، بل ولا قريبة منه ، ولذلك تدور حول المركز بمعدل مائتى ميل فى الثانية .

ولما تقدمت وسائل الرصد ، خطت الأبحاث العلمية خطوة كبيرة أخرى فى هذا الاتجاه ، فوجد أن هناك ملايين عديدة من المجموعات كالمجموعة المجرية ، وهى المعروفة بالسدائم الخارجة عن المجرة . فالسديم (م ٣١) من المرأة المسلسلة مثلا يبلغ قطره ربع قطر المجموعة المجرية ، ووزنه يعادل وزن خمسة آلاف مليون شمس ؛ وانه كالمجموعة المجرية يدور فى الفضاء حول محور عمودى على مستوى سطحه .

وتبدو هذه المجموعات فى المنظار مختلفة الأشكال نظراً لتباين أوضاعها بالنسبة الينا . أما الأبحاث العلمية الحديثة فتنسبها كلها الى أصل واحد والى سلسلة واحدة من التطورات ، فالكروى التام منها مثل (N. G. C. ٣٣٧٩) يصبح كرويا ناقصاً مثل السديم (N. G. C. ٤٦٢١) ومع مضى الزمن يصبح كالعدسة المنحصرة من الجانبين مثل السديم (N. G. C. ٤٥٩٤) ثم يصير كالقرص أو كعجلة السيارة مثل السديم (N. G. C. ٤٥٦٥) أو السديم المجرى نفسه . وفى منتصف هذه السلسلة من التطورات يبدأ تكون النجوم .

نرى إذن كيف ان مركز الأرض فى الكون ضئيل الى أقصى حد : فهى احدى أفراد المجموعة الشمسية تدور حول الشمس (التى هى مركز المجموعة) مرة كل سنة . أما الشمس فهى واحدة من مجموعة عظيمة من نجوم أو شموس تعد بآلاف الملايين : وهى الأخرى تدور حول مركز المجموعة . ومثل هذه المجموعة مجموعات كثيرة تعد بالملايين متشابهة فى تكونها ومنشئها وتطوراتها .

هذا هو مركز الأرض بالنسبة الى الاجرام السماوية الاخرى فكيف لو نقيس عليه آمالنا ومطامعنا ومتاعبنا فى هذه الحياة ؟

الشـــاى

فى عام ٥٤٣ بعد الميلاد ، حضر من الهند إلى الصين ناسك متعبد ، يذيع فى الناس دينه ويدعو إلى الخير والسلام . وما وطئت رجلاه أرض الصين ، حتى نذر أن يصوم عن النوم تسعة أعوام ، يتأمل فيها فضائل ربه (بوذا) ويعدد مناقبه ، ويسبح بآلائه وحمده ، وظل على هذه الحال صاحياً ثلاثة أعوام ، ثم غلبه النوم ، فلما استيقظ استشاط غضباً من نفسه . ولما كان لكل زلة عقاب ، قص أجفان عينيه ، وألقى بهما إلى الأرض . ثم أخذ من جديد فى التأمل والتعبد خمس سنين أخر ، ثم بدأت رأسه تميل للنعاس ، ولكن وقعت يده إذ ذاك على شجيرة قريبة ، فأخذ يتلهى بمضغ أوراقها ، فوجد فيها القوة على مغالبة النوم ، ووجد فيها اليقظة المنشودة ، فأتم تسعة الأعوام المنذورة فى يقظة وتهجد . وكانت هذه الشجيرة تسمى بالصينية « شا » .

بهذا تحدث أساطير الصين . ومهما يكن من الأمر ، فلا شك أن الشاى أول ما عرف فى الصين ، ثم انتقل منها إلى اليابان ، وهناك زرعوه تعمداً ، ثم انتقل غرباً الى الهند . فأوروبا . ولعل أكثر الأمم الأوروبية شرباً للشاى ، الأمة الانجليزية ، حتى ليظن ظان أنه نبات متوطن بها ، وأن عادة شربه نشأت بداءة فى تلك الجزيرة الغربية ، ثم تفشت فى الأمم مشرقة . وليس الأمر كذلك ، فان الشاى كان شيئاً نادراً فى انجلترا فى منتصف القرن السابع عشر ، وكان ثمن الرطل منه نحو عشرة من الجنيهات . وكان شراباً جديداً يسقاه الخاصة فى مقاهى مختارة . ولما بدأ يدخل المنازل كانوا يغلونه كما يغلون الخضر ، ثم يصفونه ، فأما الماء فيصبونه فى البلاعة جهلا ، وأما الورق فيبسطونه كالمربيات على الخبز المزبود فيأكلونه . وبالطبع صحح هذا الخطأ سريعاً تجار لهم فى ذلك مصالح ، وزاد المستهلك من الشاى فى تلك البلاد عاما بعد عام ، حتى أربى فى السنوات الأخيرة على ٤٠٠ مليون رطل بمعدل نحو من ثمانية أرطال للفرد فى العام .

والشاى أوراق شجيرات لا يكاد يزيد ارتفاعها على متر ونصف المتر، تظل خضراء طول العام، فلا تعرو فى الخريف، تحمل وريقات صغيرة، يتراوح طولها بين خمس السنتيمترات والعشر، لها شكل كسنان الرمح، وحرف ذو أسنان. وتزرع تلك الشجيرات فلا يقطف منها شىء فى العام الأول، فاذا جاءت السنة الثانية تهيأت وريقاتها للقطاف، ويزداد المقطوف منها بتتابع الأعوام. ولما كانت تزرع لورقها، لا لخشبها أو ثمرها، كان لابد من تقليم أفرعها، كى لا تطول مصعدة، وينتج عن هذا خروج أفرع جديدة من جوانب الأفرع المقلمة، أفرع تكتسى كلها بالورق فيكثر المحصول من الأوراق. وبعد قطف الأوراق تنشر على حصر لتجف وتذبل، ثم تدرج وتبرم باليد فى ضغط على أسطح من الخشب، والقصد من ذلك تكسير الخلايا لتجود بزيتها العطرى، فطيبة رائحة. ويعقب ذلك عملية الاختمار فتعرض الأوراق لدرجة حرارة تتراوح بين ٢٥ و٤٠ درجة مئوية، فتتحول من اللون الأخضر الى الأصفر، ثم يقتم لونها اقتاما، وذلك بسبب الخمائر التى فيها، فهى تؤكسد بعض حامض التنيك الذى بالورق، فتحيل الى مادة ذات لون قاتم تكسب الشاى لونه المألوف. وعملية الاختمار هذه من الأهمية بالمكان الأول، وعلى إجادتها تتوقف جودة الشاى.

أما الشاى ذو اللون الأخضر الذى يباع فى الأسواق فيحضر بطريقة كطريقة الشاى الأسود الآنفة، غير أنه يحمص قبل تخميره فى أوعية تسخن بالغاز تسخيناً هيناً، وهذا التسخين يقتل بعض تلك الخمائر التى كانت سبباً فى أكسدة حامض التنيك، وفى إحداث اللون القاتم، فاذا تخمرت الأوراق بعد ذلك، قامت بالتخمير بقية الخمائر التى لم يقتلها التسخين، ولهذا يظل الشاى حافظاً لشىء من اخضراره الأول وانفتاح لونه.

والشاى يحتوى مواد كيمائية كثيرة، أهمها ثلاثة أصول: أولها الزيت الطيار، وهو الذى يكسب الشاى نكهة تصعد الى أنف شاربه فتجد منها السبيل الى قلبه ونفسه. ومقدار هذا الزيت بالغ القلة، ولعله لو زاد لنا طاب الشاى شرابا.

وثانيها حامض التنيك، ويسمى التنين كذلك، وهو مادة صلبة مخيقة بين البياض والسمرة تذوب فى الماء. ويبلغ مقدار التنين فى الشاى على العادة من ١٠ الى ١٧ فى المائة من وزن الأوراق. والتنين قابض شديد، تعرف أثره فى لسانك اذا تذوقته. وسبب قبضه أنه يرسب الزلال والمخاط اللذين باللسان والفم وبأغشية الجسم الأخرى كالتى تبطن بها القناة الهضمية من معدة وأمعاء. فتجف تلك الأغشية وتنقبض وتقل افرازاتها. ولذلك كان التنين دواء للاسهال، ودواء للالتهابات التى تعترى القناة الهضمية. فانه فضلا عن تقليل الافرازات، فان الراسب الذى يحدثه عند التقائه بمخاط جدران الأمعاء الملتهبة، يقى هذه الجدران مس الطعام فى سيره احتكاكا بما فيه من بقايا خشنة مؤذية. ويستخدم التنين دواء للثة الدامية، وفى التهاب الحلق فيتعاطى غرغرة. هذه كلها لا شك فضائل ولكن فى المرض. أما فى الصحة فهى مؤذيات يزيد أذاها بالاسراف من شرب الشاى. فمن ذا الذى يحب الاقلال من افرازاته الطبيعية التى عليها مدار الهضم؟ ومن ذا الذى يحب أن يستعيض عن معدته الطرية الملساء عما فيها من مخاط بمعدة كجلد القرب؟ عرفت سيدة عجوزا يؤذيها الشاى خفيفا، ولكنها تستريح عليه اذا كان ثقيلا كلون الدم السكيب. وكانت تتعاطاه فى بدء كل طعام وفى آخره؛ وماذاك إلا أنها كانت قرعة المعدة لا تحتمل مس الطعام وإن لان. ولكن ليت شعرى عم يتساقاه فلاحونا عاعاهم الله، فتلك بكارجهم لاتكاد تطفأ من تحتها النار، فيقذفون فيها بالماء فالشاى، فالماء فالشاى، حتى يصبح الشراب أقتم من طالعهم الأسود. أعن أمعدة قريحة يتساقونه فيجدوا فيه شفاء من ألم؟ أم لأنهم لم يجدوا فى سوء الغذاء وقلته وفى الأمراض الكثيرة المتوطنة بمصر كالبلهارسيا والانكلستوما أداة كافية لهدفواهم فاتخذوا من الشاى فى العقد الأخير أداة جديدة تقتل فى بطء وطول؟

وثالث الأصول التى بالشاى وأهمها مادة قلوية تسمى بالكافين، وإن شئت قلت القهوتين، وإن شئت قلت الشايين، وهذه كلها معناها الأصل الفعال فى الشاى أو فى القهوة المتهارقة؛

فالأصلان واحد . وهـذا الأصل أهم ما فى هذين الشرابين من الأصول الطبية . أما أثره فيظهر فى مراكز المخ العليا ، فهو يزيد فى يقظة العقل عامة ، وفى المقدرة على الحكم فى الأمور وعلى حسن الاستنتاج ، وربط الفكر . وهو يذهب بالتعب عقليا كان أو جثمانيا . ولعل شرب الناس له فى العصر بعد انقضاء أكثر عمل اليوم ، كان لحكمة اهتدى اليها الشاربون بغريزتهم . وهو فوق ذلك يدر البول .

وللشاى فى الأمم المدنية الحديثة أثر اجتماعى كبير ، فقد اتخذت منه تلك الأمم وجبة خفيفة ، خفيفة على المعدة وعلى الجيب على السواء ، يجتمع عليها أهل الأعمال يتحدثون برهات قصيرة ، وأهل المودة يتسامرون ساعات قليلة ، ويلتقى عليها الأحباب فى بر وعفة ، يتجاذبون أطراف الأحاديث الحلوة ، ببطون بالطعام خفيفة ، وقلوب بالحب مفعمة ثقيلة .

الأدب اليابانى

(بقية المنشور على صفحة ٢٦)

هذا لا نعجب إذا رأينا اليابان تحتفل احتفالا عظيم الشأن بالعيد المئوى للشاعر شيلر ، أو إذا رأيناها تخصص الصفحات الأولى من جرائدها ومجلاتها المحترمة للكتابة عن إبسن ومؤلفاته ومكانته الأدبية الممتازة عقب وفاته . لهذا يمكننا أن نعتبر الآداب الغربية نوعا من أنواع « المودة » التى تروح وتغدو كل عام بين اوربا واليابان .

ولم يعقب هذا اللقاح المتعدد الانواع والأجناس إلا نوعا من الآداب أشبه شىء بالثوب الذى تزدحم فيه الألوان دون تناسق أو تآلف أو ترتيب ، ولكن يصح الآن أن نقول أن الآداب اليابانية قد تخلصت من جميع تلك العناصر الغربية بل يمكن أن نميز فيها بوضوح إتجاهين يابانيين جديدين . فانه بعد المدرسة الانسانية Humanitaire التى أنشأها « سيرا كابا » عقب المدرسة الطبيعية ظهرت مدرسة أخرى جديدة تدين بالمذهب الواقعى جعلت همها مخالطة الجماهير والتحدث اليهم عن معايب الطبقة الرأسمالية الغنية ؛ وكان زعيم هذه المدرسة الجديدة « كيكوتى » الذى أسس عام ١٩١١ فى اليابان جمعية أدبية أطلق عليها أسم « جمعية القصصيين » ولا يزال أثر هذه المدرسة نافذ المفعول حتى اليوم ، لأن آثار

١٦ ١

« كيكوتى » وأتباعه الأدبية قد لاقت هوى فى نفوس العدد الأكبر من اليابانيين لأن رجال المال هم القابضون على زمام الأمور فى تلك البلاد .

أما الاتجاه الآخر فهو أن جماعة من كتاب اليابان الحديثين أخذوا على عاتقهم أن يصفوا فى كتاباتهم حياة الطبقة الدنيا من اليابانيين أى طبقة العمال ومن إليهم . وقد تعمقوا فى هذا الوصف حتى أنك تكاد تلمس بيديك فى كتاباتهم هيكل البؤس والتعس المخيم على هذه الطبقة الفقيرة .

وخلاصة الموقف الأدبى الآن فى اليابان هو أن هنالك فى الميدان أربع فرق من الأدباء تتنازع الجمهور اليابانى . فالفريق الأول هم أصحاب المدرسة الكلاسيكية الذين يعشقون الآداب لذاتها ، وهؤلاء يمثلون الطبقة الأرستقراطية من المجتمع ، ويقفون وجها لوجه أمام الفريق الثانى أى الأدباء الذين يعبرون عما تكنه صدور الطبقة الدنيا من آلام وآمال وهموم وأحزان ؛ ثم الفريق الثالث وهم أدباء المدرسة الحديثة الذين يحبون التجديد فى كل شىء حتى فى العواطف الانسانية ويطلقون عليهم تهكما اسم « المدرسة الاستقراطية » ، وآثارها مع ذلك لا تخلو من الطرافة فى نواحى عدة منها . أما الفريق الرابع فهم أدباء المدرسة الشعبية وينضم تحت لوائها العدد الأكبر من أدباء اليابان وهم يخاطبون الشعب اليابانى كأنه كتلة واحدة لا تباين فيها ولا اختلاف ؟

احمد الشتاوى .



يوم عصيب فى جبل المقطم

للأستاذ محمد الدمرداش محمد

مدير ادارة السجلات والامتحانات بوزارة المعارف

كان ذلك يوم جمعة فى شهر فبراير سنة ١٩٤٩ ، ولم أكن وقتها حديث عهد بجبل المقطم ، أو قليل خبرة بوديانه وطرقاته ، ولكنها حالة طارئة من النوع الذى يبتلى به رواد الصحراء . فتوهى بهم أو تجعلهم يتخبطون فيها على غير هدى . إلى أن تتشلهم العناية الآلهية — كانت تجربة قاسية ولكن الله سلم . ولا يظن القارىء أن هذه التجارب وأمثالها تصد رواد الجبال والصحراوات عن رحلاتهم ، بل هى مما يزيد فى خبرتهم وحماستهم ويجعلهم (معيدين) يقدمون غير هيابين أو وجلين.

خرجت من منزلى فى هذا اليوم فى الصباح الباكر ، وبصحبتى أحد الأصدقاء نقصد زيارة الغابة المتحجرة الكبرى بجبل المقطم على أربع ساعات من القلعة بالسير الحثيث جهة الجنوب الشرقى — وكان اليوم صحواً ، والطقس معتدلا ، والهواء ساكناً ، وكنا على عزم أن نعود بعد الظهر بقليل ، فلم نأخذ معنا ماء ولا طعاما سوى شطيرتين (سندوتش) لكل منا . وكانت ملابسى خفيفة وليس معى من مرافق الرحلات الجبلية سوى عصا قصيرة .

وصلنا المنشية فى منتصف الساعة السابعة ، ثم درنا حول القلعة من جهة (عرب اليسار) وبعد أن اجتزنا تكية سيدى المغاورى أخذنا نرتقى الجبل ؛ وبعد نصف ساعة وصلنا هضبة المقطم السفلى . وبعد أن مررنا بقلعة الجبل ومقام سيدى الجيوشى أخذنا طريقنا الى هضبة المقطم العليا ، ثم أخذنا نسير فى نفس الطريق الذى يسلكه عادة الذين يقصدون (عيون موسى) وبعد ساعة مررنا بعيون موسى ، ثم انحدرنا الى وادى اللبلابة وهو واد متسع قليل الارتفاعات ، فأخذنا طريقنا فيه متجهين نحو الجنوب وبعد ساعتين من عيون موسى وصلنا الغابة المتحجرة الكبرى بعد أن قطعنا نحو ١٨ كيلو متراً .

كانت الساعة وقتئذ العاشرة والنصف . وكنا على أحسن ما يكون نشاطا وسروراً . وكانت الشمس ساطعة ، والهواء دافئاً منعشاً



جبل المقطم . الغابة المتحجرة . وادى اللبلابة . وادى دجلة . طريق الزعفرانة . طريق العودة

عيون موسى   وادى [illegible]

وبعد أن استرحنا قليلا تناولنا ما كان معنا من الطعام . ثم انطلقنا نجوس خلال الغابة باحثين مستطلعين . فهذا جزع شجرة ملقى على الأرض تخاله من بعد انه جزع شجرة حقيقى . فاذا تبينته عن قرب وجدته قطعة من الصخر الرملى . فالرمل قد حل مكان الخلايا النباتية بألوانها وأشكالها وتعرجاتها ، واذا طرقته بقطعة من الصخر أعطى صوتاً له رنين المعدن — وهذا فرع شجرة حل به ما حل بالجزع — وقد قضينا فى الفرجة نحو الساعتين . وكان كل شىء حتى الآن على ما يرام . ولكن لم نكد نتهيأ للرجوع حوالى منتصف الساعة الواحدة . حتى شعرنا بأن ريحاً شمالية غربية باردة بدأت تهب فى وجوهنا . ثم تلبد الأفق من جهة الغرب بسحب كثيفة ، وزادت سرعة الريح . وبعد قليل انتشر فى الجو ضباب كثيف وحوالى الساعة الواحدة سقط رذاذ خفيف وبدأت الشمس تحتجب وراء السحب .

فلما تغير الحال هكذا رأيت عولنا على العودة مسرعين . فاتجهنا نحو الشمال الغربى قاصدين السير فى نفس الطريق الذى سلكناه فى الصباح ونظراً لتلبد الجو بالضباب واختفاء الشمس . اعتمدنا فى تعرف الجهات على هبوب الريح ، فجعلنا نسير فى الاتجاه المضاد لهبوبه — وبعد أن سرنا نحو ساعة بالسير الحثيث لاحظت أن معالم الطريق بدأت تتغير . فلم اهتم لذلك ظناً منى أنه

ربما انحرفنا قليلا جهة الشرق أو الغرب ، ولكن بعد ساعة أخرى أدركت أني أسير في طريق لم آلفه من قبل فساورني بعض القلق وأخذ صاحبي يسألني عن موضعنا بالنسبة للقلعة ومتى نصل وهكذا من الأسئلة المتفرعة — كنا قد وصلنا في هذا الوقت الى واد صخري عميق ظننته لأول وهلة وادي عيون موسى . ولكن بعد أن نزلناه وسرنا فيه قليلا تأكدت أنه غيره — وهنا امطرتنا السماء مدراراً فتبللت ملابسنا وتوحل الطريق فأعاقنا عن السير ، ثم برد الجو ، فلم نر بدا من الالتجاء الى مغارة قريبة لنستريح فيها قليلا ، فلما خف المطر استأنفنا السير في نفس الاتجاه . وبعد ساعة أخرى أدركت تماما أني أسير على غير هدى وأيقنت بعد ان تنكر الطريق اني قد ضللت ، فتملكني ضيق شديد وساورتني المخاوف وأخذت أندب سوء المصير في هذه المفاوز حيث لاماء ولاطعام ولاغطاء ، ولكني وجدت من الحكمة ان أخفي حالي عن صاحبي ، فكتمت كربي وتكلفت الاطمئنان تكلفا وكنت كلما سألني عن القلعة وعن سبب تأخرنا أجبته إنا لابد واصلان ان شاء الله . ولكن بالرغم من محاولتي اخفاء اضطرابي وتصنعي الهدوء لحظ صاحبي في وجهي شدة الحيرة والقلق ، فأخذ يشكو الجوع والبرد والتعب ، وزاد الطين بلة أن ثارت في وجهنا في هذه اللحظة زوبعة رملية شديدة وهطل المطر كأنه أفواه القرب فعميت عيوننا وأصبحنا غرقى في لجة من الماء والوحل ، وكنا عندئذ نسير على ظهر جبل عال لايزيد عرضه على عشرين مترا ، وعن شمالنا واد عميق جدرانه قائمة كالطور ولايقل انخفاضه عنا عن مائة متر أو يزيد ، وعن يميننا واد آخر كالاول الا انه أكبر اتساعا وأقل انحداراً . وكان الظلام منتشراً في كل مكان ، وريح باردة عاتية تسفي في وجوهنا الرمل والتراب باستمرار ، فتعذرت الرؤية واشتد بنا الكرب وتوقعت في كل خطوة أن نهوي في هوة عميقة أو نسقط على الأرض من الاعياء — طلب مني صاحبي وفي هذا الموقف الحرج أن نأوي الى ملجأ يقينا البرد والمطر وشكا الى ماحل به من التعب المضني .

فطيبت خاطره وشجعته ثم أفصحت له عن حقيقة موقفنا بكلمات قليلة ورجوته أن يصبر ، وقلت له أن الليل قد داهمنا وليس لنا من واق في هذه الجبال الا رحمة الله . وأن الوقوف عن الحركة يضر بنا فملابسنا مبللة وبطوننا خاوية والبرد قارس ولا فائدة من التذمر ، ثم أردفت ذلك قائلا : ربما كنا أقرب الى السلامة مما يبدو لنا الآن — فلما وقف صاحبي على مانحن فيه أضطرب كثيرا ولكن لم يلبث لحسن الحظ أن سلم أمره لله وقال سر بنا وسأتبعك فالله سبحانه يتولانا بلطفه وهدايته . ثم قال : ولماذا لانسير في عكس



اتجاهنا خصوصا وانا قد جربنا السير في اتجاه مضاد للريح ولم نصل الى غاية . فقلت له ربما لحظت أني دائما أسير والريح في وجهي وذلك لأني أعلم أن هبوب الريح في مصر في هذا الشهر من السنة يكون عادة من الشمال الغربي أو الغرب . فالسير في هذا الاتجاه أسلم عاقبة مادمنا لانملك وسيلة أخرى من وسائل الاهتداء الى الجهات الأصلية . ولا بد أن يؤدي بنا السير آجلا أو عاجلا الى وادي النيل . فقال عسى ! ثم سكت . وبعد أن قطعنا مرحلة أخرى رأيت من الحكمة أن نلتجيء الى الوادي بسبب الظلام الدامس والبرد القارس فاخترت نقطة ظننت أنها ربما تكون أقل خطورة للهبوط الى الوادي ، واشرت إلى صاحبي أن يتبعني وأن يكون حريصا منتبها وأن يستجمع كل قواه حتى لاتزل قدمه فيهوى الى الحضيض ، فأومأ بالايجاب . وفي أقل من نصف ساعة وصلنا بطن الوادي بسلام وبعد أن استرحنا قليلا أخذنا طريقنا متبعين تعاريج الوادي قائلا في نفسي أن كتب علينا البقاء في هذه البيداء هذه الليلة فسنجد في احدى المغاور ملجأ وحماية .

بعد أن سرنا في الوادي نحو كيلو متر فطنت الى أننا متجهان نحو منبع الوادي من اتجاه الحشائش في أعشابها . فعدنا أدراجنا مؤملا أن عن واصلنا السير أن نصل إلى مدخل الوادي في وقت قريب ، وعندها ربما نهتدي الى طريق يوصلنا الى مكان يكون لي به معرفة .

في هذا الوقت العصيب ظهرت بارقة أمل على غير انتظار بددت كثيرا من غمنا وكآبتنا واعادت الينا شيئا من الطمأنينة

والثقة . كانت الساعة السادسة والنصف مساء عندما أدركت أن لي بالوادي الذي نسير فيه معرفة سابقة من بعض الشواهد والعلامات . وبعد قليل ترجح عندي من تعاريج الوادي ونظامها انا نسير في « وادي دجلة » ثم لم ألبث طويلا حتى ثبت لي من علامة مميزة في الحائط الجنوبي للوادي . وهي فتحة مغارة لها شكل خاص ، من أن الوادي هو وادي دجلة حقيقة ، فكدت أطير من الفرح وأخذتني نشوة سرور أعجز عن وصفها ولا يشعر بمثلها الا من كان في مثل موقفنا وحالتنا عندما تنتشله العناية الآلهية من ضيق مهلك الى سلامة مؤكدة ، ثم أخذت أفكر فيما عسى أن يكون قد جرى لنا حتى تحولنا عن وجهتنا الأصلية الى هذا الوادي

ووادي دجلة واد طويل يبلغ طوله من مدخله حتى نهايته نحو اثني عشر كيلو متراً ، كثير التعاريج ينتهي بشلال غاية في الجلال . يقصده كثيرون من محبي الرحلات الجبلية للتفرج على مشاهده الفريدة ومناظره البديعة ويقع مدخل الوادي في الشرق من « طره » وعلى بعد ساعة وصف منها ، وتمتد بينهما سلسلة من التلال تخفي مدخل الوادي وتجعل الوصول اليه متعسراً . وعقب الأمطار الغزيرة يترع الوادي بالماء ويخرج منه أحيانا سيل جارف يهدد المنطقة حول طره بالاتلاف والغرق .

وبعد أن بشرت صاحبي بالخلاص من الورطة ، وبعد أن انتعش وعادت اليه بشاشته أخذت ونحن نسير في الوادي أقص عليه بعض ماصادفته من المواقف الحرجة في رحلاتي السابقة وكيف كنت أخرج منها في كل مرة سالما بتوفيق الله . وبفضل الاطمئنان ورباطة الجأش وقوة ذاكرتي التي تحفظ كثيرا من العلامات المميزة للجبال والوديان التي أزورها .

(يتبع)

المبـــارزة

للكاتب الروسي اسكندر بوشكين

تابع لما قبـله

لا يبالي الذين يعيشون في العواصم بالحوادث الصغيرة لا تشغلهم عما هو أهم وأخطر . ولا يتصورون ما يكون لهذه الحوادث على ضآلتها من الخطر والأثر في المدن الصغيرة والقرى البعيدة . مثال ذلك وصول البريد ، ففي يومي الجمعة والثلاثاء من كل أسبوع تكتظ مكاتب المعسكر بالناس . هذا ينتظر نقوداً وذاك رسالة وهؤلاء يسألون عن الصحف . كل يتلقف ماله في شغف واهتمام . وأذكر أن رسائل سيلفيو كانت تحتوي الى معسكرنا ، وأنه كان يزورنا وقت وصول البريد لتسلمها . وفي أحد هذه الأيام تسلم خطابا ، فما لمح اسم الجهة الصادر منها حتى لمعت عيناه وأسرع بفضه وقراءته في تأثر وحماس . وبالطبع لم يدرك أحد سواي هذه التغيرات التي بدت في ملامح وجهه وحركات يديه لانشغال الجميع بقراءة رسائلهم .

وبعد لحظات التفت الرجل الينا قائلا « يضطرني العمل الى مغادرة القرية هذا المساء ، وأنا لذلك أدعوكم لتناول العشاء معي اليوم للمرة الأخيرة ، وكلي أمل ألا أحرم من لقائكم جميعاً » ثم أشار اليّ بالذات وقال « وكم أتمنى أن أراك بينهم ! » ثم أسرع بمغادرة المكان كما أسرع كل منا الى جناحه الخاص بعد أن اتفقنا على اجابة الدعوة .

ووصلت الى منزل سيلفيو في الساعة التي عينها فوجدت ضباط الفرقة جميعا هناك ، ورأيت كل أثاث المنزل قد جمع وربط استعداداً للرحيل ، وأبصرت الجدران عارية من أغلفة الرصاص . . جلسنا الى المائدة وأكلنا هنيئا وشربنا حتى ثملنا ، وكنا نكثر من الخمر التي مالت نفسها في الكؤوس حتى تشربنا زبدها ورغوتها فتجرعنا ، ولما انتهينا — وكنا قد أطلنا الجلوس — لبسنا قبعاتنا وهممنا بالانصراف راجين لمضيفنا العزيز التوفيق في رحلته . فاجاب شاكرا وأخذ يرد تحية ضيوفه واحداً واحداً حتى جاء دوري فأسر الي « اني أريد أن أحدثك برهة من الزمن ! » فلم أريدا من السكوت بعد انصراف الآخرين

جلس كل منا قبالة صاحبه وأخذنا ندخن في سكون . وقد كان سيلفيو متعبا شاحب الوجه ، وان عجبت لشيء فلم أعجب الا من هذا التغير الفجائي الذي بدا عليه ، فقد غاض ذلك السرور الذي أشرق به وجهه ساعة الغداء ، واختفى بريق عينيه وضعفت نظراته وأصبح منظره وهو ينظر الى سحائب الدخان المتصاعدة من غليونه منظر الشيطان !

وبعد بضع دقائق قال « تعالا نلتق بعد هذا المساء ، ولذلك أرى من واجبي ان أشرح لك بعض امور لأنك في أنك تسائل عنها بينك وبين نفسك . . . وأنا وإن كنت لا أعير آراء الشباب إهتماما سأخبرك عما تريد لأني أميل اليك وأعجب بك ! ولما رآني أسكت وأعاني نظراته أفرغ عليونه وواصل حديثه ، لقد دهشت على ما أرى لتصرفي مع الضابط الكبير رسيابوف في الليلة التي تذكرها ولاشك ، وأظنك عجبت عندما علمت اني لم أغسل الاهانة التي لحقتني ومع هذا فأنا أعتبر عدم اقدامي على مبارزة ذلك الأحمق كرماً مني ، لأني – وقد كان اختيار السلاح لي – أثق بانتصاري عليه وقتله مهما كان السلاح ، ومهما كانت طريقة المبارزة ، ولكني في الواقع لا أملك حياتي ! ؟

نظرت اليه في دهشة واستغراب . . . ومضى يقول : منذ ستة أعوام تلقيت ضربة من شخص لا يزال على قيد الحياة ! ؟ هنا زادت دهشتي فسألته مسرعا « أولم تقابله ؟ . لاريب في أن ظرفا خاصا منعك من لقائه . فأجاب « لقد قابلته ، وهذا ما أسفر عنه لقاؤنا »

وقام وأحضر من صندوق قريب قلنسوة من القماش الأحمر لها زر معقود وضفائر معوجة مثل القبعات التي يسميها الفرنسيون Bonnet de Police ، ولما لبسها رأيت ثقبا يدل على أن رصاصة اخترقتها على مسافة بوصة واحدة من الجبهة !

وواصل حديثه قائلا (أنت تعرف أنني كنت في فرقة الفرسان الامبراطورية ، وتعرف خلقي فانا أحب أن أسود الجميع ، ولقد كانت هذه الرغبة في السيادة أيام شبابي قوية الى درجة الجنون ، وكانت لذة الشبان في المشاجرة وقتذاك ، ولهذا كنت شيخ المشاجرين وزعيمهم في الفرقة ، وكنا نفخر بالسكر والعربدة ، أما أنا فكنت أفوق في الشراب (ب) الشهير في أغنية دافيدوف . . لي في كل يوم مبارزة أمثل فيها الدور الاول أو الثاني فينظر الى زملائي نظرة الاعجاب ، أما رؤسائي فكانوا يعتقدون انني كالطاعون الذي لاخلاص منه ولا نجاة !

« وظللت أعيش وسط معالم الانتصار وعلائم الرهبة حتى نقل الى فرقتنا شاب غني من اسرة نبيلة ، وأنا لا أريد أن أذكر لك اسمه ، ولكن ثق اني لم اقابل شخصا لحظ هذا الشاب ، فيه كل ماتتصور من القوة والنشاط ، وكل ما تحلم به من الجمال والرشاقة ، وكل ماتتمناه من الذكاء وسرعة البديهة والرقة في الحديث بل كل ماتصوراليه من الثروة والبذخ . . . فيه كل هذا وأكثر منه : اقدام غريب لا يعبأ بالخطر أو الموت ، ولا يفكر في الهزيمة . . . فإن وصل هذا الشاب فرقتنا حتى تلاشي نفوذي وزالت سطوتي ، وقد أراد أول عهده مصاحبتي لما رآه من الزعامة المعقودة لي ، ولكني قابلته بفتور ولذلك تركني دون ان يظهر عليه شيء من التأثر .

« وأقول لك الحق لقد كرهته لما رأيت من شغف الجميع به واحترامهم إياه ولما شاهدته من أعجاب السيدات به وتهالكهن عليه وكم حاولت أن اجره الى الشجار مستعملا أسلوبي التهكمي اللاذع وسخريتي المتصلة ، ولكنه كان يجيب على ذلك بسرعة خاطره وذكائه وميله الى السرور . كنت احقد دائما وكان يمرح دائما ، وفي النهاية بينما كنا في منزل بولندي نحضر حفلة من حفلات الرقص اسررت في اذنه جملة مهينة لكرامته لما رايته من شغف ربة البيت به وصدوفها عني مع أنها كانت تميل قبل أن تتعرف الى هذا الشاب الغني الجميل فما كان منه الا أن صفعني ، فأسرعت الى سيفي وأسرع الى سيفه . . وقامت الدنيا وقعدت . وقعد بعض السيدات صواتهن ، واندفع زملاؤنا وحالوا بيننا وبين الشجار ! ولكننا غادرنا المكان رغبة في المبارزة السريعة حتى يغسل كل واحد منا الاهانة التي لحقته بالدم !

« وذهبت مع شهودي الثلاثة الى المكان الموعود ، وكنت أنتظر غريمي في قلق واضطراب . . . طلعت الشمس وأخذت حرارتها تزداد شيئا فشيئا وأني يتهادى في مشيته مرتديا قميصه واضعاً رداءه الرسمي على كتفه ، يحمل في يده قبعته التي ملأها كرزاً ولم يكن معه غير شاهد واحد

« أقمنا الشهود في نقطتين تبعد إحداهما عن الأخرى باثنتي عشرة خطوة ، وكان من حقي أن تكون طلقتي الأولى ، ولكني رفضت لما كنت أخشاه من اخطائه في حالتي العصبية . ورفض هو الآخر ولذلك تركنا المسألة للمصادفة وكانت في جانب هذا الشاب الذي أفسده الحظ الحسن . أطلق رصاصته ولكنها أخترقت قبعتي ولم تصبني بسوء ، وجاء دوري فشعرت أنه تحت رحمتي وأستطيع اذا شئت أن أسلبه نعمة السعادة بل نعمة الحياة . . نظرت اليه في شوق ، وكنت أنتظر أن أراه مغتماً شاحب الوجه . ولكن خاب ظني لأني رأيته يأكل فاكهته في هدوء واطمئنان ويلقي بالبذور الى ناحيتي فتتساقط تحت أقدامي .

« فكرت في نفسي ماذا أجني من أخذ حياة هذا الشاب الذي لا يعنى بالحياة ! ولمعت عيناي عندما خطر لي خاطر غريب ، وأفرغت بندقيتي وقلت له ، يخيل الي أنك لا تهتم كثيراً بموتك أو حياتك في هذه اللحظة ، وأنك تعنى بأفكارك أكثر من عنايتك بالمبارزة . . لكن ماتراه فليس عندي الرغبة في إزعاجك »

« فأجاب : أحب أن تلزم مكانك فقط ، وأرجو ، أن تطلق رصاصتك ولكن يجب أن تذكر أن لك أن تطلقها في المكان والزمان اللذين تشاء ، وأنا رهن إشارتك في كل حين ! »

« غادرت المكان وأنا أقول لشهودي أنا لا أرغب في إطلاق رصاصي في هذا اليوم وانتهت المسألة وقتذاك على هذه الصورة »

« ثم أرسلت استقالتي من الجيش واعتكفت في هذه القرية المتواضعة وأنا لا أفكر في غير شيء واحد هو الانتقام ، وقد حان وقته ! »

وعندئذ أخرج سيلفيو الرسالة التي تلقاها هذا الصباح من أحد معارفه ولعله عاميه — يقول له فيها أن الرجل (المطلوب) سيتزوج في القريب العاجل من فتاة رائعة الجمال . ثم مضى في حديثه يقول « وليس من شك في أن الرجل المطلوب هو عدوي الذي أريد الانتقام منه . وها أنا ذاهب الى موسكو . وسأرى إذا كان يقابل الموت وسط أفراح العرس بالفتور التي قابله به وقتذاك وفي يده رطل من فاكهة الكرز » .

ولما نطق بهذه الكلمات ألقى بقبعته الى الأرض منفعلاً ثم أخذ يسير في الغرفة جيئة وذهوباً كما يسير النمر المحبوس ! ولم أعترضه أثناء حديثه فقد ملك لبي واسترعى انتباهي وأثار في أنواعاً متضاربة من العواطف

ودخل أحد الخدم يقول لسيده : إن العربة قد أعدت ، وهنا تناول سيلفيو يدي وصافحني في حرارة ، وركب العربة التي كان فيها صندوقان يحتوي أحدهما على أسلحة الرجل وبنادقه ويحتوي الآخر على أدواته وملابسه . . ثم حياني مرة أخرى قبل أن تتحرك العربة ، وفي الحق لقد كان وداعاً مؤثراً . .

(يتبع) عبد الحميد يونس

ooooooooooo

حافظ وشـــوقي

للدكتور طه حسين

ظهر هذا الكتاب القيم حديثاً وهو مجموعة ما أنشأه الدكتور في هذا الموضوع الطريف . طبع طبعاً حسناً على ورق صقيل في زهاء ٢٥٠ صفحة . يباع في المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد . وثمنه ١٠ قروش .